بحـر الغمـام

بحـــر الغمـــام

مجموعة قصصية

أحمـد علـــي مخيمـــر

بحـــر الغمـــام

مجمــوعة قصصيـــة

اسم الكاتب: أحمد علي مخيمر

تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية

تصميم الغلاف: محمد سعد الشحات

الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم

الطبعة / الأولى

رقم الإيداع: ١٥٨٤٦ / ٢٠١٨

طبعت بمطبعة الشروق

حقوق التوزيع

المكتبة العربية للنشر والتوزيع

Arabic Library

Facebook.com/arabiclibrary2017

جميع الحقوق محفوظة

سعادتنا محدودة وشقاؤنا في هذه الحياة أبديٌ

إهداء

لأرواح طيبة؛ إن لم تجد ما يحزنها أست على أحوال الناس

توطئة

حاولت عبثاً أن أستهل كتابي ببعض الكلمات التعريفية، أن أذكر بعض مزاياه -ربما- أو بعض عيوبه، بل استهوتني كلمة "توطئة" في حد ذاتها؛ وبِتُّ أسأل نفسي أي كلماتٍ ستكتبها هنا يا ترى؟

والآن أمسك قلمي و أقرر بأن لا خير في كلٍ إلا إن كان في بعضه. فإليك بعض من كل....

ضاقت واستحكمت حلقاتها، واشتد الخناق وبِتُّ ألفظ آخر أنفاسي لاهثاً ككلب عطش، أنتظر فرجها ولكن هيهات فبعد الضيق ضيقٌ وكربات، ولمن يكون الموت مئة مرة في اليوم والليلة إن لم يكن لي!

ترى أمذنب أنا فأتوب؟ ولكني في مُصلاي لم أبرحه بعد فكيف أكون مذنباً؟!

سنين عجاف لا نهاية لها أحياها. سحابة قاتمة تلوح في الأفق وليس لزوالها ميعاد. أنظر لنفسي في المرآة متعجباً، تُرى أهذا أنا؟ قناعٌ من كآبة التصق بوجهي حتى بات إنفصاله مستحيلاً، أخاديد حُفرت بخدي بأنهار الدموع حتى بدا كأرض بور حُفرت مجاريها وجفت مياهها، أما عيني التي كنت أعجب بزرقتها مالت إلى البياض، لا ليس وجهي بالتأكيد، إنها المرآة تخادعني ككل الأشياء، ألم تخدعني منذ سنة أيضاً عندما بدوت فيها فارساً صلباً تُزيّن رأسه عبقرية فذة ويلمع فوق كتفيه نور أمنيات ووهج أحلام!

أتعتقد أني أبله مثلاً لأصدقها مجدداً؟ سأحطمها الآن كما حطمت أغلالي من قبل وسأتحرر من أسرها.

لحظة!

هل مزقت كل شيء؟

مُغفل، ومزقت حبال نجدتك أيضاً؟ ألم تميّز بينهما يا أحمق؟! يا إلهي، سأغرق ولن أنجو، سأتخبط في الحياة حتى تتخلى عني أنفاسي وتخونني رئتي، سأصل للقاع، سترطتم رأسي به، وسيعمل من جديد كما كان، سيجد مخرجه في فكرة عالقة به هنا أو هناك، نعم؛ إني أعوّل عليك فلا تخدعني مثلها.

أرأيت .. ماذا؟ .. هناك أيها الأحمق .. أُنْظُرْ، ماذا ترى؟ أناس كثيرون، عددهم يفوق الخيال، كل هؤلاء غارقون؟ نعم، إنهم مثلنا، ولكن .. لماذا يبدون هكذا؟ أترى ذلك الرجل هناك .. نعم .. على اليمين، يُخيل إلي أنه أعمى، إنه يصارع بيده في اللاشيء أمامه، لا إنه يبحث عن شيء ما .. نعم، ربما يبحث عن حبل لإنقاذه، أحمق .. لقد غرق بالفعل، إنه ميت الآن.

أنظر .. هناك .. خلفه بقليل، امرأة عارية تماماً، يا إلهي، إنها جميلة!، ولكن .. ماذا تفعل؟، لماذا تضرب وجهها بهذه القسوة؟ إنها مجنونة بلا شك .. دعك منها. شيطان! ... هناك أنظر، أي شيطان يا أحمق، الشياطين لا تغرق أنسيت!، نعم .. نعم .. ولكن من هذا إن لم يكن شيطاناً؟، هذا .. هذا .. من الأفضل أن لا نتحدث عنه، لماذا؟ لا تسأل .. بل من الأفضل أن لا ننظر له، هيا لنتبعد من هنا، بسرعة.

انتظر! أنظر هناك .. بجوار المرأة المجنونة .. نعم هذا الشاب النحيل، عليه أن يخجل من نفسه، أتراه؟ لا تُبارح عينه المجنونة العارية .. ألا يعرف بجنونها؟ أنظر.. ما هذه القذارة على صدره .. شيء مقزز .. ألا ينظف صدره أولاً ثم ينظر للمجنونة!. دعك منه و أنظر هناك .. في الناحية الأخرى .. على اليسار قليلاً .. نعم المرأة العجوز هناك، ليست عجوز إن شعرها ما زال أسوداً، روحها يا أحمق هو ما أتحدث عنه، وما دخلي أنا بجسدها!، ماذا بها يا ترى؟، إنها حزينة، دعنا نقترب ونسألها ما بها، أمي .. أمي .. ماذا بكِ؟

لماذا لا تجيب؟ إنها أمٌ ثكلى،هل هي تسمعنا؟ أمي .. أمي .. لا تحزني فنحن معكِ. مسكينة، أمي .. أمي .. نحن معكِ!

أنظر .. هناك بإتجاه إصبعي، يا إلهي، ما هذا؟ لماذا يُعلّق هذا الرجل من لسانه هكذا، أترى ذلك الدم الذي يخرج من فمه؟ إنه يخرج للداخل .. يا إلهي .. إنه يشرب دماً! ماذا يكون قد فعل يا ترى ليُعذب هكذا؟، يبدو كاذباً .. أغلق أذنك بسرعة ولا تسمع له .. بسرعة .. هيا لنجد مخرجاً .

ما هذا الحاجز المنيع؟!، إنه من الحديد!، ألن يصدأ هنا؟ هناك فتحة صغيرة، سأعبره .. سأعبره وسأنجو. عيني تؤلمني، ما هذا الضوء؟ سأرى .. سأرى، من هذه، يا للروعة!، إنها المجنونة العارية، فاتنة بثيابها الفخمة، أووه، وهذا الشاب بجوارها، نعم إنه هو ذو الصدر القذر، يبدو قوياً الآن، يا لجمال بدلته! لماذا فُرشت الأرض حريراً هنا؟ من هناك؟ .. نعم إنه الذي لا ينبغي أن نتحدث عنه، لأبتعد من هنا بسرعة، يا لروعة المكان، وهذا اللسان، يبدو صوته مألوفاً. نعم أعرفه، إنه الرجل الذي يشرب دماً، إنه

يتألق على الشاشات، يا لهيبته!، وهذه المرأة هناك، إنها العجوز، تنظر للشاشة وتضحك، يبدو أنها لم تفقد ابنها بعد. وهذا الرجل! من جديد .. إنه صديقي الذي تركني أغرق هنا، الأبله يبدو متألقاً .. نعم أبله ثري. وهذا الواقف بجواره، يا إلهي، إنه أنا!، ولكن لماذا أبدو مهموماً وسط حشد السعداء هؤلاء؟، إني كئيب فعلاً وهذه عادتي. ولكن .. لحظة!، إن كنت أنا الواقف هناك فمن أنا الآن!

أحلامٌ على الطريقِ

اِحتلَّ قرص الشمس مغرِبه وتربعت أضواؤه على عرش سمائهِ، واكتست الأرض بحمرة تبعث على الخدر، وهدأت الأنفاس بعد يوم عمل مُضن، وارتخت أجسادهم المُتعبة على كراسيهم الوثيرة، بعضهم شبه نائم والباقون صامتون يتأملون جانبي الطريق في هدوء يشبه الحلم، لا تسمع إلا تلك النغمات العذبة تنبعث من الراديو لأغنية جميلة وعتيقة، وصوت الرياح يُدوي خارج السيارة وكأنها ترفض تلك السكينة التي تُلازم وقت الغروب. قطع صمتنا صوتُ السائق يُطالِب بالأجرة على أن نعطيها للكمسري الجالس بجواري وعلى يميني في المقعد الأول خلف السائق تماماً، ورغم قصر المسافة بيني وبينه التي لا تتجاوز السنتيمترات إلا أني سمعت صداً لصوته وكأنه آتٍ من بعيد، ولا أعلم لماذا تذكرت أمي في تلك اللحظة بالذات، ففي كل صباح كان أول ما يصلني ويلامس جوارحي صوتها، توقظني لأذهب للمدرسة التي طالما أحببتها وكرهت الاستيقاظ لها، وتنتشلني بصوتها الدافئ من أحلامي البريئة وكأنها تقصد استرجاعي لعالم الو اقع كي لا تأسرني الأحلام. جُمعت الأجرة آلياً من الخلف إلى الأمام حتى انتهت إلى الكمسري، رجل أربعيني ذو شعر كثّ تبدو على وجهه الطيبة والبؤس معاً، عدّل من ترتيب النقود فجعل العملة ذات الفئة الأعلى قيمة بالأسفل ثم الأقل قيمة فوقها ثم الأقل وهكذا حتى رتّبها جميعاً بترتيب يوحي لك أن العملة ذات القيمة الأكبر قادرة على تحمل ثقل باقي العملات أو مُجبرة على ذلك، وتذكرت أمي

ثانية وكيف تحملت عناء تربية أربعة أبناء وحدها بعد وفاة أبي، أربعة أبناء لم يبلغوا الحُلُم بعد تُركوا لها من غير سابق إنذار وعليها وحدها أن تكفلهم مادياً ومعنوياً وهي في عُمر الثلاثين، وفكرت حينها أن عظيم القدرِ قد كُتب عليه الشقاء في هذه الدنيا، أو أنّ الشقاء كُتب عليه ليكون عظيم القدر، أجهل ترتيبهما المنطقي وما أوقنه أنهما متلازمان لا ينفك أحدهما عن صاحبه. أخذ الكمسري يُعمِل يده من جديد في ترتيب النقود بحيث سوّى الورقات ذات الفئة الواحدة، الجديد في الأسفل والمُتهالك فوقه، وهكذا في كل فئة على حِدة بحيث حافظ على ترتيبها السابق، انزعجت هذه المرة وسألته بصوت مكتوم: لماذا تُصرّ على أن تضع أوزار الفاسدين ونقائصهم فوق أكتاف الصالحين؟، ألا يكفيك أنك ستجمعهم في مكان واحد!، بل وستبددهم في شيء واحد خيراً كان أم شراً، أهو ذنب الجيد أنه جيد؟، أم حظ السيئ أنه سيئ؟، ولكنه للأسف لم يسمعني!

عاد الراديو من جديد يقطع الصمت المُخيف ولكن هذه المرة بأغنية أعتق من سابقتها وأشد حزناً. طنين المحرك من مقدمة السيارة واهتزازات الطريق وقرص الشمس الأحمر وصفير الرياح والنغمات الهادئة الحزينة وتعب يوم طويل والصمت الذي يصم الآذان كانت بلا ريب الأسباب التي جعلتني أشعر بخدر لذيذ يسري في جسدي كله وغرقت في التفكير بهذا الأمر مجدداً ...

التفت الكمسري ناحيتي ولمعت عيناه في نشوة غريبة وقال فجأة للشخص الجالس بجواري على اليسار: وكأني أراك خارجاً من سجنٍ بعد عمرٍ مديد، فمالك ووجهك الشاحب!، إنه يلائم شحاذاً قد أسنَّ وعجزَ، أو مريضاً قد نخره المرض، يلملم بعضه بعضا، ألم يطعموك في سجنك؟، أم قدموا لك ما لا يُسمن ولا يُغني؟، ومالك شارد العينين هكذا!، أصعبت عليك الحرية؟، أم أنك تعشق الأغلال ولا تطيق مُفارقة السجّان؟، لا تتجهم وابتسم فزنزانتك تحن إليك أكثر من حنينك لها، وسجّانك هناك ينتظرك غداً وفي يديه السوط، فقم ونم واذهب فاكدح لعيشك، فما للسجين مكانٌ غير سجنه.

فنظر إليه الشخص الجالس بجواري وعلى وجهه ابتسامة رضا وشفقة وقال: وكأن عينيك مرآة لما يدور بعقلك، لم أعهد عيون الناس هكذا، فدائماً كان هنالك ما يحيل بين قلوبهم وبصيرتي، إنها عيونهم الماكرة، آه، إنها تتلون كما تتلون الحِرباء حتى يَصعُب على شخصٍ مثلي أن يكشف خباياهم، أما أنت فنقيٌ طاهر، فَتَحَتْ لي عيناك أبوابها ور أيت ما أحزنني، نعم بطريقة ما وبشدة، وكأني أراك ذليلاً مُعدماً، لم تنل عزة السّائق فانحططت إلى منزلة صبيه، تُجمع معه جمعاً، لم تجد ما يكفيك ويكفي حاجة أولادك فارتضيت هذه المكانة في هذا السن، أعرف ذلك ولا أعرف لما آسي لك هكذا، ألا تعلم أن عليك شكر هذا السائق ، فهو في غِنى عنك، يا إلهي؛ كم تمنيت أن تمتلأ قلوبنا بمثل هذه الشفقة!

نظر له الكمسري بنصف عين وكأنه كشف سراً قد أعياه إخفاؤه منذ زمن وغض طرفه ولم يزد حرفاً .

انفجر حينها السائق غضباً وبدا احمرار وجهه واضحاً في المرآة وقال: أنْ تواجه الخادِم بعيوبه لهو أمرٌ مُشين، أمَّا أن تلومه على مهنته فهو مالا يطيق، كذا يُستحبُ منك العتاب لما يترتب عليه من نتائج حميدة، حين يكون في قدر المُعاتَب أن يُصلِح ما قد فَسَدَ، ويُحرَّم عليك الخوض فيم لا سلطة له عليه، فلا تُعايرني بفقري ولا أحسدك على غِناك.

الكل يُعاني ولكن بقدر طاقته، الكل سعيد ولكن بمقدار، إنه الاعتياد في السراء وفي الضراء هو ما يجعلنا نتحمل قسوة الأيام وشدائدها. أنْ تعيش في النور يعني أنك لن تعرف إلا النور، وأنْ تعيش في الظلام يعني أنك لن تعرف سواه، وما دمت لا تُدرك الشيء ونقيضه فلن تُعاني بقسوة كما لن تُقابل السعادة بكثرة. و اقعنا سيئ بلا شك ومشاكلنا مُعقدة على نحوٍ ما، هنالك ما بإمكاننا السيطرة عليه، وهنالك ما تقصر عنه العزائم و تفنى دونه الطاقات أو يحول دونه قدر مقدور .

واستطرد السائق حديثه ناظراً إياي وقال: فلا تدع ما لا تملك زمام أمره أن يُحزِنك، عِشْ حاضرك واستنفذ كلَّ حدوده، واطمح بخيالك أيضاً.

وأنا في ذروة إندهاشي من فصاحة السائق والكمسري وطلاقة ألسنتهما، هممت أن أردَّ عليه و أقول: ولكن الطموح فيم يعلو على الو اقع سخفٌ و انتحار، ولكنَّه كان قد اختفى من أمامي فلم أقل شيئاً. واستيقظت

حينها فزعاً من غفوتي وكلمات الأغنية العتيقة ما زالت تتردد، والكمسري ينظر لي ويبتسم.

اعتدلت، فالليل قد أوشك وقاربنا على الوصول. ترى أفقدت عقلي حين تقدمت لهذا العمل؟، مازلت أتعجب بعدما قضيت عشر سنوات في هذه المهنة كيف مازلت صابراً؟، إنها للحق لمهانة وليست مهنة، عشر ساعات عمل حتى يستغيث ظهري وتترجاني قدمي بالرحمة، أهو عمل أم عذاب؟ أي ذلة قد أجبرتني لأحتمل هذه السنوات؟ نعم إنها الحاجة، ولكن أي حاجة قد تدفن صاحبها حياً؟ الأكرم لي أن أموت من الجوع بدلاً من أن أموت في العمل، قلتُ وكلي حماس. وتذكرت وقوفي اليوم أمام مكتب المدير، كنت قد وصلت متأخراً بعدة دقائق بسبب عطل في العربة الخربة التي تقلنا إلى هنا، ولمّا دلفت إلى المصنع مهرولاً كي لا يطالني أي خصم، فالمرتب يكاد يكفيني وليس لي طاقة بأي غرامة، وصلني خبراً بأن المدير ينتظرني بمكتبه، ولكي أحد من غضبه ولا أضيّع مزيداً من الدقائق هرولت إليه وأنا ألعن بنطالي الضيق الذي يمنعني من الحركة بحرية، التحقت بمكتبه في ثواني وحمدت الله أنه لم يتمزق. لمعت أمام عيني تلك اللوحة المعدنية المعلقة على باب مكتبه بكلماتها المذهبة "مكتب المدير"، والآن أواجه أكبر مخاوفي، همهمت وكلي قلق، فبعد أقسام الشرطة لا يوجد على الأرض شيء أهابه سوى هذا المكتب، رغم أني موظف مجتهد في عمله ومواطن صالح إلا أنه في حضرة الاثنين تأبى نفسي الهدوء، وحمدت الله مرة ثانية أنه كان مشغولاً، وبذلك تسنى لي أن أمسك بزمام جسدي المرتعش، انتظرت دقيقة واثنين وربع ساعة ونصف ساعة

ومع مرور الوقت ازدت يقيناً بأن عقوبتي ستزداد، حتى جاء الفرج بعد ساعة ونصف وفُتح الباب، وعاود جسدي من جديد اضطرابه وارتعشت قدمي وهي تطأ الفروة السميكة من السجاد الأحمر، وتعلق بصري باللوحة الخشبية على مكتبه، وأنا أجاهد كي أنطق اسمه حتى لا أتعثر فيه، "باهي عبد البي" لعن الله اللدغة وحرف الراء معاً، ألم يجد أبوه وجده سوى هذين الاسمين؟، وسألت نفسي: ترى لو نطقت اسمه بهذا الشكل هل يضحك علي أم يزعجه طريقة نطقي، بيد أن سخريته في هذا الوقت ستكون أفضل. تقدمت منه وظللت صامتاً، ورمقني هو بنظرة من أسفل نظارته، كان شبيهاً بناظر مدرستي، قصير القامة وممتلئ الجسد، تغطي نظارته عينيه الواسعتين، لماذا يتشابه كل من نكرههم دائماً؟، هشّ بيده ذبابة لدغته في خده المتورد، فاقتربت منه وقررت أن أفعل مثله، أو افقه هواه فيطيب معي، هكذا اعتقدت فهششت بيدي مثله، ولكني عرفت بأني ارتكتبت غلطة كبرى حين قال: "تصل متأخراً ولا يعجبك مكتبي أيضاً!"، وحوّل نظره إلى ملف أحمر أمامه، وبدأ يقلب أور اقه، وبقيت صامتاً كي لا أزيد الطين بلة، ثم قال: "قهوة سادة"، فقلت: "نعم!" فرمقني باشمئزاز وأكمل العبث بأور اقه، وأدركت أخيراً بوجود زر التليفون أسفل مكتبه عندما دخل عجوز يرتدي قميص أزرق عتيق يحمل صينية وعليها كوب القهوة، فشعرت بالحماقة.

هل سيظل صامتاً هكذا؟، سألت نفسي لما طال وقوفي أمامه، ولم أجرؤ على مقاطعته، ولمحت خلف رأسه الذبابة نفسها من جديد، تتحين لحظة الإنقضاض، فتمنيت أن تلدغه مجدداً!

وأخيراً ترك الملف وخلع نظارته وفرك عينيه بسبابته وإبهامه ونظر لي وقال: "ما اسمك؟"

-صابر السعيد يا بيه.

- خصم ساعتين يا صابر، اتفضل. قالها ببساطة وأشار بيده لباب الخروج، فخرجت دون أن أعترض. ساعتين خصم أحسن من نص يوم. رددت بين نفسي، وتذكرت زميلي الذي اعترض يوماً على خصم نصف يوم وأخذته الحمية فعلا صوته أمام المدير ففُصل عن العمل دون رجعة. وخرجت أتنفس الصعداء و أنا أكرر "خصم ساعتين أحسن من خصم نص يوم".

الآن قررت وكلي إصرار أن اليوم هو نهاية العذاب، لا عبودية بعد الآن. اليوم تُكسر الأغلال نهائياً. سأبحث عن عملٍ آخر ولن تطأ قدمي هذا المصنع مجدداً، كررتها على لساني وكلي نشوة لم أعدها من قبل، فأخيراً استفاق عقلي.

وصلنا، فنزلت وعدت لمنزلي سيراً و أنا أكاد أطير من الفرح، حتى أني نسيت تناول العشاء، نمت هذا اليوم كما لم أنم من قبل، وكأني بقراري هذا امتلكت الدنيا وما فيها، لكم تأخر هذا القرار!، ولكن لا بأس فها أنا قررت و انتهى.

وفي اليوم التالي...

- لماذا لم تنم يا أستاذ صابر؟، ما الذي بدل حالك عن أمس؟

- أتعرف أني أفكر في الاستقالة يا عم صالح، لقد مللت هذه الوظيفة يا رجل، عشر سنين على هذه الحال، نوم فاستيقاظ فعمل ثم نوم ، أفكر جدياً في الاستقالة!

ضحك الرجل باستهزاء وقال: عشر سنين ومللت!، فماذا بك لو أتممت العشرين مثلي؟

وعلا صوت الأغنية العتيقة نفسها من جديد، يبدو أنها لن تتركنا وحالنا.

الطبيعة تنتصر

الطفرة، ممكن أن نعرفها بأنها تغير دائم يحدث في الحمض النووي (DNA) وبالتالي تغير في الصفات الجسمية أو الوظيفية للخلية اللي حصلت فيها الطفرة، يعني مثلاً البنكرياس مسئول عن إفراز هرمون الأنسولين في حالته الطبيعية، لو حصلت فيه طفرة فهيتوقف تماماً عن إفرازه أو هيفرزه بنسب غير منتظمة وبالتالي تُصاب بالسكر. أمثلة كثيرة لا حصر لها على الطفرات، وسببها بيكون إما طبيعي أو عن طريق مُطفرات يعني مُسببات للطفرة، ادعي ربنا بقا إنه ميحصلش عندك طفرة في ودنك وبدل ما تسمع بيها تشوف بيها.

غرقنا في الضحك بعدما أنهى الدكتور (سيد إسماعيل) كلمته الأخيرة بوعدٍ منه وأملٍ منّا أن يُكمل ما قد بدأه عن الطفرات في السنة القادمة. لقد كان للدكتور سيد حساً عالياً جداً من الفكاهة وقدرة عجيبة على توصيل المعلومة لعقولنا مهما بلغت صعوبتها، والشائع عنه بين الطلاب القدامى وطلاب الفرقة الأولى -وأنا منهم- إذا جاء ذِكر اسمه وسط أحاديثنا بأنه "دكتور فاهم" على حد قولنا.

شغلني موضوع محاضرته الأخيرة و أثار اهتمامي بشكل بالغ جداً فقلما وجدت ما يثيرني في سنتي الأولى، بعدما تخرجت من المدرسة الثانوية وفي عقلي أحلاماً أملت أن أجد الجامعة أرضاً خصبة لتحقيقها. خاب ظني كثيراً وبدأت أتناسها إلا أن الدكتور سيد روى بذرتها من جديد. ولذلك ظلّت كلمته

الأخيرة تتردد في ذهني "الطفرات ممكن تحدث بشكل طبيعي" و أنا أتجول في حديقة الجامعة لأول مرة منذ أن وطأت قدمي الجامعة، فكوني طالباً للطب لم يُتح لي الكثير من الوقت كي أتنزه، وقد انتهزت فرصة نهاية السنة لاستكشفها للمرة الأولى كي يكون في جعبتي ما ألقيه على مسامع إخوتي عندما أعود إليهم ويلتفوا حولي وعيونهم تلمع من الدهشة حتى قبل أن أحكي شيئاً، وبالنسبة لي كان الأمر خطيراً جداً، وبدأت أسأل نفسي كيف يتسنى للطبيعة أن تفعل فعلتها ؟، فشوارعنا ومدارسنا مليئة بأطفال ورجال لعبت معهم الطبيعة لعبتها الخبيثة تلك، فباتت مناظرهم كتحف فنية عطبة، أطفال مصابون بشلل دائم، صمم غير ور اثي، زو ائد لحمية بالجسم، تأخر عقلي وحالات جنون تامة، ضمور في العضلات، بُهاق وتشوهات خلقية، بوروفيريا حادة وآلام متقطعة في البطن، هيموفيليا ونزيف يصعب إيقافه، عشرات المتلازمات المرضية الظاهرة للعيان والغير مرئية التي تستهدف الأطفال بشكل خاص، وعاد السؤال يلح عليّ من جديد، أي إرادة خبيثة قد حركت الطبيعة لتهزر هزارها السخيف ذلك؟ و أبصرت بجانبي و أنا مستند على شجرة عمرها يقارب الخمسين سنة فتاة فائقة الجمال، مكتنزة الجسم فاتنة، وقد التف حولها خمسة شبان، يضحكون ويتغامزون سوياً. يبدو أن ما قيل عن حديقة الجامعة صحيحاً، فسمعتها سيئة جداً بين مُعمري الفرقة الأولى الذين يعرفون (سقط الولد) كما في المثل الشعبي، وتقدم شاب منها يبدو عليه بأنه قائد هذه العصابة وقال لها:

- ايه يا (سما) مش هتيجي معانا نتفرج على الماتش؟

- مش هقدروالله يا عادل .. هسمعه في البيت وخلاص.
- ليه بس يا بنتي دي الشلة كلها هتكون هناك وهننبسط ؟
- إنت عارف بابا بقا مش هيو افق.

قالت وهي تلوي شفتها السفلى وكأنها تقلد أحداً، فضحكوا وضحكت هي، وقررت أنا الابتعاد لأخلو بتساؤلاتي علّني أجد إجابات تشفي عقلي. لا يمكننا إهمال الجانب الطبي في الأمر ولكن التعليل الأول يكون دوماً "شيء طبيعي"!، فكيف عبثت بنا الطبيعة هكذا؟

وتوقفت لحظة عن لوم الطبيعة و أنا أبتلع قرص المُسكن الذي وصفته لنفسي بصفتي دكتور وإن كنت طالباً، وتذكرت أطنان الأدوية التي تُنتج يومياً ويلتهمها الناس بشراهة، حتى البرد أبسط الأمراض التي يقضي عليها حبة ليمون وراحة لأسبوع على الأكثر يوجد له أكثر من ثلاثين نوع من الدواء، وتذكرت مصانع الأسمدة على الطرق والهواء الذي لوثناه، والماء الذي لوثناه حتى أصبح لا يصلح أساساً لسقاية الحيوان، والأطعمة المسممة والمعدلة جينياً التي نتناولها يومياً، والأشعة الضارة تصلنا من الشمس وتسبب طفرات خطيرة، وما الغريب! فنحن من ندمر طبقة الأوزون، إشعاعات ذرية شوهت الملايين وسُمها ما زال يجري في دمائهم، وما الغريب! فنحن من ألقينا القنبلة الذرية، طفرات تسببها الأدوية للجنين لو تناولتها الأم الحامل، وما الغريب! نحن من نصنع الأدوية ونروج لها ونستبدلها بحارسنا الطبيعي، أمراض سكر وسمنة وفيروسات حولتنا لهياكل عظمية وقاطرات بشرية، وما دخل الطبيعة! فنحن من نُسرف ونهمل ونتقاعس ونلوث. وفي غمرة تفكيري

و أنا أتنزه صفعتني الطبيعة مرة أخرى بهذا المشهد، إذ رأيت الفتاة و أنا على وشك المغادرة تخرج ضاحكة مع شبانها الخمس كالسكارى، وأوقف أحدهم سيارة و انصرفوا. يبدو أنها و افقت أخيراً على الذهاب معهم!

وسألت نفسي: ماذا تفعل بنت مع خمسة شبان؟ كيف ارتضت عبثها هذا وكيف و افق ذلك هواهم؟ هل هذا من طبيعة البشر؟!

بالطبع لم تجبرهم الطبيعة على ذلك، وعليهم وحدهم يقع اللوم. فتيقنت بأن ما فعلته الطبيعة كان رد فعل طبيعياً جداً ومنطقياً، نُدلي نحن بآرائنا وترفع هي يدها مو افقة، نُعملُ نحن أيدينا فيها فتردُ الصاع صاعين.

وللحظة فُضّ الإشتباك، وتحركت أغصان الأشجار وكأنها ارتضت إجابتي، وبدت لي في تلك اللحظة شامخة كجنود منتصرة وظهر لي وجه الإنسان من ورائها قبيحاً يضحك كالشيطان، وهممت بالانصراف وكلي شوق إلي لقاء الدكتور سيد إسماعيل السنة القادمة، وأسى على طبيعتنا المظلومة التي انتصرت مرة أخرى وخسرنا نحن.

السراب

وما ذنبي أني لم أعد أطق الحياة هنا، فجدران بلادي تضيق على صدري، وسقف أحلامي بدأ ينهار فوق رأسي، وإن طال مكوثي فسأصير ميتاً على قيد الحياة!

- مللت قربنا يا حسام وغدونا أعداءك؟
- لا والله يا أمي، فلا أحب على قلبي من مجالستكم العمر، ولكن كما رددتي دوماً "ارفض و اقعك إن كان سيئاً واطمح لتغييره"، أليست تلك كلماتك التي ملأتي بها أذني وربيتني عليها!، فها أنا أود مغادرة البلاد فربما وجدت وطناً يحملني غير آبه، يسعني ويسع أحلامي.
- نعم، هكذا عودتك دائماً ولازلت أردد ولكنك نسيت بقية كلامي يا ولدي، فإياك ونسج أحلام و أنت يقظان.
- ستغدو أحلامي حقيقية يا أماه يوماً ما.
- أتمنى ذلك من كل قلبي يا حبيبي، ولكننا سنشتاق لك، فأنت لا تعرف كيف تكون الحياة في غيابك.
- و أنا أكثر يا أماه، فالبيت بوجودك جنة، ولكنها جنة حُفت بالنار، واحة خضراء وسط الصحراء، لا أود مغادرتها ولكن هكذا الحياة؛ لا يلتزم فيها أحد بمكان؛ فلا يكفي هو وحده.
- غادرها إذن يا ولدي علّك تجد جنتك المنشودة، رحم الله أباك، وليكن الله في عوننا.

~~~

في ليلة شتوية قارصة البرودة التف الأبوان حول النيران يتقيان بها شدة الضيف الثقيل، وينعمان سوياً ببعض الهدوء والراحة ويتبادلان أطراف الحديث وينسجان به أحلام اليقظة والغفلة. تنهدت الأم التي بدأت عقدها الرابع بعمق وارتياح لا ينمان عن تعب وشقاء، وكأنها أفاقت من حلم سعيد ونظرت لزوجها الذي أصبح على أعتاب الشيب وخالطت بعض الشعرات البيضاء رأسه وبدأ ضعف الشيخوخة يدق على أبواب صحته، وقالت وما زالت شاخصة بعينيها ترى ما لا يستطيع غيرها إبصاره:

- إنه أملي الوحيد في هذا الدنيا، آه لو يتحقق هو الآخر، أكون قد نلت ما عشت وصبرت لأجله طوال تلك السنوات العجاف، يدخل حسام ابننا كلية الطب ويُسعدني كما فعل أخوه، ويكون طبيباً عظيماً.
- لا تتعجلي يا أم أحمد، فقلد حقق لك الله حلمك الأول، ودخل أحمد كلية الهندسة وهو على أعتاب التخرج الآن. وقريباً إن شاء الله سنسعد بتفوق أخوه.
- يعلم الله أنّ حياتي كلها وسبب كفاحي من أجل أن نراهم أصحاب شأن في هذه الدنيا، وبدونهم ستكون حياتي صعبة بلا معنى.
- سيوفقه الله ولن يخذلنا، ألم أخبرك بحلمي ليلة أمس؟
- لا، أخير هو؟
- نعم، وبخصوص حسام، إذ رأيت فيم يرى النائم أني ما زلت طالباً وقد تأخرت على موعد الامتحان، وخرجت من بيت أبي القديم
~~~

مهرولاً كالحصان، لا أدري كيف استطعت الركض بمثل هذه السرعة و أنا لم أكن يوماً محباً للرياضة، ودخلت اللجنة متأخراً قليلاً عن موعد بدأه وقلبي يكاد ينخلع خوفاً، أمسكت بورقة الامتحان فإذا هي في يدي بيضاء لا تشوبها شائبة ولم يدنسها قلم، فناديت على الممتحن الذي لم تبدُ لي هيأته واضحة ولكنه كان طيب الوجه ومألوفه، وسألته أن يعطيني ورقة أخرى غير هذه البيضاء الخالية ولكنه ابتسم في وجهي وقال لي بأن الوقت قد انتهى. استيقظت فزعاً وصورة حسام ابننا لا تفارق خيالي ولساني يلهج بالدعاء له.

- ياربي! وهل هذا خير يا أبو أحمد؟
- مثلك ظننت، فصليت الصبح ودعوت الله بأن يوفقه، وعزمت على لقاء الشيخ محمود إمام مسجدنا في صلاة المغرب بعدما أعود من العمل، فقابلته وقصصت عليه ذلك الحلم وما كان منه إلا أن زاد وجهه إشراقاً وتهللاً وطمأني قائلاً "حفظ الله أولادك، الخير لك ولهم".
- طمأن الله قلبه، الشيخ محمود لا يخيب له تفسير.
- نعم يا أم أحمد هو كذلك، فليوفق الله حسام وكل أصحابه.

~~~
~~~

على أعتاب الهجرة وعند بوابة الوطن يجب أن تنتظر قليلاً، لتعيد التفكير في الأمر برمته. فثمة مألوف أنت على وشك هجره ربما للأبد ومجهول ينتظرك، فهل تقدر على الارتماء في أحضانه؟، أن تترك خلفك ما عرفت مقدار خيره وشره وتمد يدك لتصافح ما لا تعرف خباياه ليس بالأمر الهين، أن تترك وراءك أحبابك وأصدقاءك لتحيا حياة جديدة لا أنيس فيها ولا حبيب لأمر جلل لا يخفى على مثلك عواقبه. الثقة فيمن لا تعرف عن خصاله شيئاً يؤدي لاثنتين فقط، إما حب وود دائم أو جرح لا تقدر على مداواته. ثمة للغربة ثمن لا بد وأنت دافعه فزِن الأمر مجدداً!

هكذا حدثت نفسي وأنا أنتظر موعد طائرتي في استراحة المطار، لا أعلم لما تذكرت أخي أحمد في تلك اللحظة. ربما لأنه كان نفس المكان الذي جلسنا فيه بانتظار طائرته قبل سفره منذ أعوام، فللمكان ذاكرة لا تنسى. وربما لقرب الشبه بين حديثي الآن وحديثي إليه من قبل إذ كنت أنهه فيه لما هو مُقدم عليه وأستحثه في نفسي أن يبقى معنا ويتخلى عن قرراه بالسفر ولكنه كان مصمماً لا يتزحزح عن قراراه، واثقاً باختياره. وعاودتني كلمته الأخيرة على إثر وصول طائرته حيث قال وعيونه تكاد تدمع: سأشتاق إليكم يا حسام، عليك بأمك فاحرص على سعادتها، وأعلم أني ضحيت ببعضي كي يبقى كلي.

لم أفهم عبارته الأخيرة إلا الآن وأنا على وشك المغادرة:"ضحي ببعضك كي يبقى كلك". صدقت يا أخي.

حمى مستعصية

خرجت أمشي و أنا لا أنتوي وجهة بعينها؛ فلقد أتممت جدول اليوم بنجاح، ولكن التماساً لبعض الراحة التي يجلبها المشي لنفسي قررت أن أتنزه قليلاً. أعتقد أن مكتشف المشي في بدايات انسانيتنا ومعلمنا إياه يجب أن يُسترد من قبره ويُمنح نوبل على الأقل. وكذلك مثله أول من أفتى بأن المشي يقلل من التوتر ويحد من الاكتئاب.

دلفت خارج البيت واستقبلت هواء الشتاء المنعش بصدر رحب، وخلال ثواني كنت قد قطعت شارعنا الضيق متجهاً إلى الشارع الرئيسي ناحية اليسار الذي خلا من سالكيه إلا من طفل يلهو وحيداً أمام بيته، سمعته يغني أغنية قميئة راجت مؤخراً فاقشعر بدني وحثثت خطاي، حتى وصلت إلى بيت أعرفه فسمعت صوت التلفاز كالعادة ينبعث من خلف الجدران ولكنه اليوم يبث مباراة كرة قدم على غرار باقي الأيام التي ينبعث فيها صوت الأخبار، إنها السابعة مساءً وهو موعد إذاعة المباريات. فابتسمت، لا لشيء وأسرعت متجاوزاً إياه هو الآخر، لا ألوي شيئاً سوى السير وفقط. وصلت إلى الطريق العام الذي يفصل بلدتنا إلى نصفين متماثلين يمنة ويسار، لطالما كان المكان الأكثر هدوءاً لنزهة كهذه في ليلة شتاء هادئ، فالعربات عليه قلة وسالكيه أغلبهم من أهل قريتنا العائدين من العمل وقليل ممن يقضون مشاويرهم الضرورية مروراً به. خيّل إلي و أنا أتزعم منتصفه سائراً أن البيوت قد أغلقت أبوابها اليوم خصيصاً لعلمها بقدومي، فابتسمت مجدداً لهذا الخاطر

السخيف وتابعت السير علّي أهتدي لوجهة ما. مرّ بجانبي رجل مطأطأ الرأس لا أعرفه فحييته ورد بفتور دون أن يلتفت.

ما أجمل أن تكون خالي البالي لايُعكر صفو مزاجك شيء ولا يشغل عقلك شاغل. إلا وأنه وسط الهدوء تطفو الذكريات على سطح العقل فيقتنص منها ما يناسب حالته فيحيا تجربتها مجردة من كل شيء سوى الإحساس الذي لازمه وقت حدوثها، وكذلك عاودتني صورة امرأة عجوز وقفت صباح اليوم بجوار سيارة أجرة تقل الركاب إلى عملهم وهي تلتمس من أحد أن يعطيها ولو يسيراً من النقود، ولم يجبها أحد. مسكينة هي وأذلاء هم. لو أمعنت النظر في وجوههم لرأت أنها أيسر حالاً منهم، ربما ليس في المال ولكن في الطمأنينة والسلام، ففي عينيها نظرة رضا ولمحة اطمئنان لما كُتب لها في هذا اليوم، أما هم فوجوههم مغبرة كشرة وكأنهم في عربة وجهتها الجحيم. عجوزٌ لم تك خبيرة يوماً في النظر فكيف لها أن تدرك غناها وفقرهم!. انتابتني موجة حزن لم تصبني صباحاً في حضرتها. ولشخص في حالتي في هذا الوقت من الطبيعي أن يكون عرضة لشتى المشاعر المتناقضة في آن واحد حيث عبثت بخيالي ذكريات أخرى أكثر جمالاً وسعادة ولكنها لم تدم طويلاً إذ أفقت على صوت انتفاضة في أحد البيوت، يبدو أن فريقاً قد أحرز هدفاً. فثار مشجعيه بهذا الشكل وبالتأكيد صمتَ منافسوه. وحسست خطاي فربما غيرت وتيرةُ سيري وتيرةَ افكاري.

دق سؤال باب رأسي يسألني: كيف يمكنك تغيير السيء من واقع حياتنا؟

يبدو أن خطة وتيرة السير قد نجحت وها قد اضطرب العقل بعد أن سقطت فكرة في بركته الراكدة. الحقيقة هذا ما رجوته من سيري وحيداً هكذا. رغم يقيني بالإجابة ولكنني رددت السؤال بسؤال علّه يمنُ عليّ بالمزيد: وهل فعلاً واقعنا يحتاج لتغيير؟

ابتسمت بسخرية وردد لساني: لا تهتم، هو فقط انعدام أخلاق وسوء تربية وطموحات أصبحت متدنية ومعايير تبدلت وتدهور تعليمي طفيف وإسفاف في الفن والأدب وانحِطاط في الذوق العام لم نعهده من قبل، آه، والقليل من قمع الحريات حد الارتعاد في أحضان الوطن وفقدان أمل تام. الأمر بسيط لا تهتم.

ابتسمت بخبث، يبدو أنني استطعت استفزازه، فزدت: فعلاً الأمر بسيط، ألا نحيا بسلام! يكفينا هذا.

زفر بقوة وتخيلته وحشاً على وشك التعارك معي ولكنه عاد لهدوئه المعهود وقال: الطريق إياه الذي عبرته لتوك شاهد على هذا السلام، وعلى صورة من صور السعادة التي تدعيها، اذهب واسأله عن سالكيه في الصبح والليل وسيتلو عليك نبأ حزنه، إذ لا يحمل ظهره سوى عمال المصانع المقهورين، الذين تتشابه عندهم الأيام وتكاد تتطابق، استيقاظ فعمل فنوم فاستيقاظ، ولولا شيب شعورهم وانحناء ظهورهم وضعف أبصارهم لما أدركوا تعاقب الأيام والسنين. أو عُد قليلاً للوراء واسأل أصحاب البيت: ألم تملوا من مشاهدة التلفاز بعد!؟ فلقد مللت أنا من سماع صوته في الذهاب والإياب. أو عُد أكثر إلى الصبي واسأله: أتحفظ درسك كما حفظت الأغنية؟،

و إياك بأن تقسو عليه وتسأله مَنْ أسمعك إياها؟ فهذه غِلظة لا تليق بقلب رحيم مثلك.

سكتَ طويلاً وقاربت على الوصول لبيتي و أبصرت رجلين قد جلسا على سلم بيت يحدقان في موبايل أحدهما، وينصتان باهتمام وورع إلى صوت المتحدث وهو يقول: "شاهد كيف قُتل هذا الطفل على يد الكفرة أعداء الإسلام"، يبدو عليهما التأثر من هول المنظر، فوددت أن أنهرهما لسوء فعلتهما. جلسا بلا عمل مفيد أو علم يؤخذ انتفاعاً يمزقان في الوقت تمزيقاً، ووددت لو أخبرتهما بأن جهلهما وجهلنا هو ما أردى الطفل لهذا الحال. أعرف أحدهما عاطلاً لا يبارح مكانه، والآن أصبح المرض مرضين، هو وصاحبه.

جاوزتهما كما جاوزت سابقيهم و اقتربت من البيت أكثر، وعبرت مزلقه جرياً فتطاوحت رأسي ويداي، وتمنيت أن تطيح عني معها هذه الخواطر ودخلت البيت و أنا أسأل نفسي: هل نكتفي فقط بالتنظير والتفلسف في الأزمات الكبرى وأوقات المعاناة؟ أم نسلك مسلك القوم فننغمس معهم في رذائلهم من أخمص القدم إلى الرأس، نحوذ حبهم واهتمامهم ونقتل معها ضمائرنا؟! أم ترانا نعتنق مذهب الأمير ونرتدي جلباب بن خلدون ونعزف على الوترين؟، أي فوضى حينها ستكون؟ و أي و اقعية سنحيا؟

حرصت على ألا أحدث جلبة فعلى الأغلب ستكون أمي نائمة في هذا الوقت، لطالما كان إيقاظها في رأيي إثم أستحق عليه العقاب. وفكرت مجدداً ماذا لو أتتني تلك العجوز إلى هنا تطلب مني اليسير كما فعلت صباحاً؟ هل أستحي منها وألبي حاجتها أم سأردها خائبة فارغة اليدين؟ ثم ماذا لو أتتني

أخرى؟. بيد أن العلاج الموضعي لا يشفي مرضاً مزمناً وكذلك لحل مشكلة ما يجب اقتلاعها من جذورها، ثم ماذا لو تعسر الحل و انسدت الطرق وعجزنا عن إحداث الفارق الكبير؟، قلت لنفسي ثمة حدود وطاقات لكل منا، فإن عجزنا عن معالجة العصي فلا يرهقنا السهل اليسير. خلعت جلبابي، وما إن دخلت حجرتي حتى طرق الباب فتعجبت وقلت لنفسي أيعقل أن تكون هي؟ وأسرعت لأفتحه فوجدته الأستاذ عبده أحد جيراننا المخلصين يسألني بوجهه الهادئ: سمعت صوت أقدام على السلم فقلت من المؤكد أنك أتيت، عهدناك تحب الخروج حتى في أيام الشتاء القاسية، أخبرني أين كنت وهل وجدت حلولاً ملموسة لإصلاح و اقعنا، أم علقت في التنظير كالعادة ولم تزد بل أصبحت زائداً؟

اندهشت من سؤاله وهممت أن أنهره لولا انعدام صوتي وتعلق الكلمات في حنجرتي، ووجدتني أستيقظ فزعاً من نومي وأمي بجواري تقول لي: كفاك هذياناً يا فؤادي، ألا لعن الله الحمى والمرض!

مُغيبون

رغم أنه كان من المفترض أن يكون عكس ذلك، إلا أنه كان يوماً عصيباً فعلاً، شمس النهار تنتهك ما تبقى من قوانا، والطريق الطويل أمامنا يلمع، والناس في ازدحام وكأنه المحشر، وثمة غراب أسود يعتلي شجرة تساقطت أوراقها ينعق، ومن بعيد صدح صوته عالياً، يشق عباب السماء: "انتخبوا قائدكم ولا تسمعوا للمغيبين".

كان قد أُطلق سراحنا للتو من المعتقل أنا وزميلي النحيل الذي ابتسم فجأة وقال: إنه صوت أبي.

مولد الباشا

حدّقت في وجهي .. رمشت مرتين ثم غمزت بعينها .. أغضبها فضولي وتطلعي .. ودت لو تقدر على إبعادي .. تثاءبت بعمق وكأنها لم تذق طعم النوم منذ يومين أو ثلاثة .. ربما أكثر من ذلك فالجروح التي تغطي جسدها كفيلة بأن تقض مضجعها وتؤرق ليلها .. حمراء دامية حديثة العهد .. يبدو من استكانتها وضعفها أنها لم تذق الألم يوماً .. فالخبير به لا يقابل إهانته بمثل هذا الهدوء ولكنه يتمرد .. ينتفض، يثور، يغضب، يتوعد .. يتخبط كذبيح يلتقط آخر أنفاسه .. آملاً لو يملك دقيقة أخرى فيعود وينتقم. أرخت رأسها ولملمت جوارحها وتكورت على بعضها .. أمنت وقفتي! مسكينة لم تتعلم الدرس بعد .. لحظة كهذه من قبل أردتها لهذا الحال .. وثقت وآمنت فاطمأنت ثم أتاها الغدر من حيث لا تحتسب .. هل كانت تأمل أن يخبرها بقدومه مثلاً؟ الخطأ خطأها. حُفِظ في خلاياها العصبية القليل، الكافي لها في الحياة وأهمهم بأن تعش وكأنها على حافة بركان .. متأهبة دوماً للنجاة من السقوط .. ولكنها نست فسقطت واحترقت. لم تعد تبالي بنظراتي، فأي شر قد أُلحقه بها لن يعادل ربع ما تُعانيه الآن. قطة مسكينة التصقت بجدار بيت قديم، حوائطه تجود بملحها حتى أوشك على الإنهيار، تماماً مثلها. لم تكن صدفة أن اختارت هذا البيت. فثمة من يقولون، وأنا أتفق معهم إلى حد ما، أن الشيء بشبيه يجتمعان، على عكس القاعدة الفيزيائية التي تقضي بتنافر الشبيهين. وهنا يمكننا أن نقر ببراءة الطفل المشاكس عندما لا يصاحب إلا

أمثاله من الأطفال، وبعفوية الأب المجرم عندما يعامل أبناءه كما يعامل ضحاياه، وبإنحراف كاتِب إذا صادفت نشأته في مجتمع منحرف. وفي هذه الحالة يمكننا أن نقول، بثقة، إذا انطبقت القاعدة على الإنسان فإن القطة، وإن كانت لا تعي شيئاً، مغلوبة على أمرها.

ابتعدت عنها و انصرفت فالليل قد أوشك والطريق إلى المسكن طويل، وفي الحقيقة فأنا أرى أن الاطلاع على عيب أحدهم لا مشكلة فيه ولكن الإصرار على تفحصه والإشارة عليه وقاحة تستحق العقاب. نفس ما كررته على مسامع زملائي في العمل اليوم عندما حاولوا التحري وتقصي أمور أحد الغائبين عن العمل، فاستحققت لقب الفيلسوف المُلفس عن جدارة!. تركتها و أكملت طريقي آملاً أن تُشفى من جراحها عما قريب.

صادف اليوم أن يكون احتفالاً في القرية التي أمر عليها في طريقي إلى البيت، إحدى القرى التي يمكنك أن تطلق عليها وصف "قرى مظلمة"، إذ تخلو من أي خدمات عامة، عرفت بأمرها عندما أصبت في العمل مرة وكانت هي أقرب مكان يمكنني أن أجد به مشفى أو على الأقل مستوصف صغير للعلاج، وعرفت أنها لا تخلو فقط من مستشفيات بل لا يوجد بها أي خدمات عامة بمعنى الكلمة، وأن أهل القرية أنفسهم يستعينون بقرية مجاورة لهم أكثر تمدناً، على أي حال كان من المدهش أن أجد احتفالاً عظيماً بها، و أيما احتفال فيم يبدو!، لوصفه يمكنك القول بأنه خليط من ملهى للأطفال وسوق للبائعين، تنير أضواؤهما القرية بأكملها، وفي الخلفية تسمع ابتهالات دينية أو مواويل على الأصح ينبعث مثيراً للخدر. احتفال بالمولد النبوي

الشريف على طريقة أهل القرى هكذا ظننت للوهلة الأولى، ومع سؤالي أحد رواديه تبينت بأنه مولد أقامه أحد أثرياء القرية المشهورين احتفالاً بشفاء حفيدته بعد طول مرض. في النهاية يمكنك أن تسميه بأنه مولد الباشا الثري هذا. ولمُفلس في نهاية الشهر مثلي تبدو هذه الاحتفالات المجانية، وإن لم أستطع فيها سوى النظر والاستماع لا التذوق واللهو (أوبن بوفيه) فقررت أن أستمتع قليلاً قبل العودة. يُقال بأن الإنسان يلجأ أحياناً للهرب من ضغط ما يُمارس عليه أو من مشكلة شائكة إلى لون من ألوان اللهو والعبث، فمثلاً يمكنك رؤية مجموعة طلاب يشاهدون مباراة لقدم القدم في ذروة امتحانات نهاية العام، ويمكنك رؤية شاب يستعيض عن حبه الماضي تحت وطأة إحساس الوحدة الذي يلاحقه بشرب المخدرات أو ممارسة العادة السرية، وفي أحسن الأحوال كي نكون منصفين بالتمارين الرياضية المرهقة كرفع الأثقال مثلاً. ويمكنك أيضاً سماع ورؤية متحدثي الإعلام في ظل أزمة إقتصادية ما قد اهتموا فجأة بأخبار نجم الكرة المشهور(س) حد الولع! وإن كان اهتمام البرنامج أصلاً لا يمت للكرة بأي صلة، إلا أنه وفي هذه الحالة بالذات تكون محاولة الهروب ليست شخصية و إنما على نطاق المجتمع كله. ولكي لا نبتعد كثيراً فأنا مثلاً ههنا ألهو بينما ينتظرني دائني في المسكن، هروب ناجح بالنسبة لي على الأقل هذا اليوم.

"وإن يوم سألوك يا سيدنا عن حال المسكين قوله الله كريم"

في نغمة إنشادية عذبة اهتزت على إثرها رءوس الو اقفين، المصطفين بانتظام يشبه اصطفافهم للصلاة، أمام ذلك المنشد ذو الوجه الهادئ ، رددوا خلفه "الله كريم". وعلى بعد خطوات منهم وسط ازدحام الباعة أقبل رجل ساعياً للاصطفاف معهم تبدو عليه أمارات التعب، ربما كان عائداً مثلي من العمل، وأشار إلي أن أقف معهم و أبتهل.

ما من داعي سأغادر قريباً.

اقتربَ مني، هذه فرصة لا تُعوض، فالباشا لا تمرض ابنته كل يوم، أقبل ونل حظك فربما أكرمك الكريم، قال.

لتوي عدت من العمل والأمر يبدو مرهقاً.

بل هو الراحة بعينها...حسناً، كما تريد، قال.

واصطف معهم و انتظم في ابتهالاتهم وحركاتهم في غضون ثواني. تذكرت خبراً سمعته صباح اليوم، بمناسبة هذا الاحتفال، أنه في إحدى القرى المجاورة لتلك القرية عُثر على عظام رأس عجل في ضريح تقام له الزيارات والابتهالات اعتقاداً منهم قبل نبش ذلك القبر أنه ولي من أولياء الله، وكذلك كان يُقام له مولد كهذا كل عام احتفالاً وتبركاً بالشيخ المقبور. ابتسمت لهذه الذكرى وفكرت كم سيكون الأمر محزناً لأهل القرية بعدما اكتشفوا ماهيته بعد حوالي مائة عام من الاحتفاء به. كم مأساوياً أن يتعلق الإنسان بشيء حد العبادة ثم يكتشف زيفه الفارغ!

علت أصواتهم مجدداً وهو يرددون كالسكارى "قوله الله كريم"

ونبهني صوتهم لما ينتظرني بالسكن، ألا يكون الحاج حسن صاحب العمارة التي أسكنها كريماً هو الآخر؟ فعادته في نهاية كل شهر أن يعلو صوته العالي مطالباً بالإيجار، يفضحني وسط السكان بصوته الغليظ الأجش. كنت قد قابلته بالأمس وهو كشر الوجه يتمنى أن يقبض روحي بيديه.

أين الإيجار؟

غداً إن شاء الله يا حاج أقبض مرتبي وأعطيك الإيجار.

ألن يأتي غدك أبداً!

وماذا أقول له وقد أثقل عاتقي دين البقال والجزار ومدرس الأولاد وخمسمائة جنيه سلفة من أحد الأصدقاء؟ حتى أصبحت أتوارى من أمام عينيه و أتحاشى لقائه. وسألت نفسي: ألن يأتي غدي أبداً؟

يبدو أن أيامي كلها هي يوم لا ينتهي.

علت أصواتهم أكثر وأصبحوا أكثر انسجاماً وهو يطوحون رءوسهم، وبدأت أعينهم تدور وكأنهم على وشك أن يُغشى عليهم. تُرى تكون هذه لحظة خلاصهم؟

وزادني منظرهم نفوراً و اقتناعاً بعدم مشاركتهم، وتذكرت القطة المسكينة وكيف تشبههم. إلا أن مُعذبهم يعيش وسطهم. ألم يكن من الأفضل لهم أن يقولوا بأن "الباشا كريم"؟

غادرت فالطريق أمامي مازال طويلاً، وعقلي مازال يسأل: هل أجد دائني قد ملّوا انتظاري وغادروا المسكن كما مللت أنا الحفل؟

عين واحدة

أوشك الليل على الحلول، ورمى عمود الإنارة بضوئه الأصفر الباهت على الأرض، وحشرجت أصوات مكبر الصوت في المسجد القائم أمام بيتنا استعداداً لإقامة صلاة المغرب، ور أيته من بعيد مُغبر الوجه يهرول وكأن كارثة على وشك الحدوث أو قد وقعت بالفعل، وخرج صوته متقطعا تشوبه نبرة حزن وقلق وبعبارة مقتضبة -"أصيب محمد في حادث على الطريق وسيُنقل لمستشفى بالغردقة"- أغنت عن عشرات الكلمات عرفنا الخبر. وكأننا في حلم جميل أفقنا على كابوس مفزع، وكانت أحداثه حقيقية هذه المرة!

متى حدث ذلك يا عمي؟، قلتُ ورأسي تعصِف.

اتصل بي منذ عشر دقائق وأخبرني بأن السيارة انقلبت به و أنه بداخل سيارة إسعاف يُنقل الآن إلى مستشفى بالغردقة.

ترنحت أمي ولم تعد تقوى على الوقوف فجلست على الأرض. لقد أخبرته بألا يسافر ويكمل عمله هنا كما اعتاد، كنت أشعر بقرب حدوث مصيبة وها هي قد حدثت، قالتْ.

لا وقت للوم الآن يا أم أحمد، المهم أن نطمأن عليه ونعرف إلى أين وصل الآن، وأخرج هاتفه من جيب بنطاله الأسود الذي يناسب تماماً هذه المو اقف وبأيدٍ مرتعشة ضرب بأصابعه على الشاشة ووضع الهاتف على أذنه منتظراً الرد، وبعد ثو اني مرت وكأنها أعوام على الزوجة التي لم تعد تدري الآن ماذا تقول وعلى الابن الأكبر الذي يشعر بالمسئولية تجاه أبيه الغائب،

وعلى الأخ الذي استقبل الفاجعة أتانا صوت أبي كالسكران من شدة ما هو فيه "أنا بخير، لكن رأسي يؤلمني وأذني تنزف... و... حوالي نصف ساعة ونصل للمستشفى" وأغلق الهاتف.

كانت تلك طلقتي الثالثة التي اخترقت قلبي حتى الآن، فبعد وقع الخبر علينا والتفكير في تبعاته ها قد أُغلق الهاتف. ألم في الرأس ونزيف من الأذن! رددت بين نفسي "ربنا يستر" ، فالمتعارف عليه هنا أن هذه مؤشرات لوصف النصف ميت الذي أوشك على فراق نصفه الآخر، ففي حالات كهذه لا ينجو المصاب.

ماذا سنفعل الآن يا دكتور صالح؟ قالت أمي.

أخشى أن نصل للغردقة ويتم ترحيلهم إلى القاهرة، فالطريق بيننا وبينهم يستغرق خمس ساعات على الأقل وبالطبع لن تسمح لهم المستشفى بالإقامة فيها طويلاً.

ألم يكن وحده في السيارة؟ قلتُ.

علي كان معه، وأخبرني محمد بأن حالته أسوء منه، فهو يشكو من صدره ونزيف لا ينقطع من فمه.

ومن كان يقود السيارة حينها؟

علي.

خففت الكلمة عنّا قليلاً، فلو مات علي أو أصيب بضرر كبير وكان هو من يقود فلن يكون أكثر سوءً كما لو كان أبي هو من يقود السيارة. الأمر سيان بالطبع عند من يعقل، فلا أحد كان يتمنى تلك الحادثة ولا لأحد دخل فيها،

ولكن عند الأهالي وعلى ألسنة الناس لن يتساوى الأمران. تذكرت في تلك اللحظة حادثة أبي الأولى وكم كلفتنا من معاناة، سجن لمدة أسبوع وغرامة ما زلنا ندفع ثمنها حتى اليوم لأهل المصاب، رغم أن الخطأ لم يكن خطأ أبي، ولكن يبدو أن القاضي أغفل تلك ونظر للإصابات فقط كي يرضي ألم المصاب وحزن أهله، ولم ينظر إلى معاناتنا نحن في دفع المال والضرر الذي أصاب السيارة لطيش ذلك الشاب. فالبطبع قيادة علي للسيارة وقت الحادث نقطة في صالحنا الآن.

أكمل عمي حديثه، من الجيد أن عبد الظاهر ابن علي معهم الآن، فبعد الحادث مباشرة تم الاتصال به ومن حسن الحظ أنه اليوم في عمله القريب من مكان الحادث.

استفاقت أمي أخيراً من الصدمة واستردت بعض قوتها وقالت: اتصل بعبد الظاهر لنعرف منه ما حدث.

لم تكن فكرة كهذه أن تفوت على عمي، فقبل مجيئه إلينا هاتفه وطمأنه الأخير على صحة أبي مُعلقاً بأن أباه هو من في خطر، ولم يزد شيئاً سوى أن سيارة العمل قُلبت بهما أثناء نقلهما حمولة لموقع العمل وأنهما الآن في طريقهما لمستشفى الغردقة العام وأنه سيحاول بكل جهده أن ينقلهما إلى القاهرة لنتمكن من زيارتهما والاعتناء بهما.

دخلنا البيت نحن الثلاثة بعد أن ارتاب الجيران من طول وقفتنا في الشارع، وكالعادة كما في كل المصائب والأفراح امتلأ البيت عن آخره بكل الأقارب، حتى أولئك الذين لا نراهم إلا في المناسبات، وأي مناسبة هذه!،

ارتفعت أصواتهم وأصبح البيت كخلية نحل لا تجد فيها أحداً صامتاً، وبعد إدلاء كلٌ منهم برأيه الحكيم في هل نسافر لهم أم ننتظر؟، عبد الظاهر سيعتني بأبيه فمن سيعتني بأبي؟ وبفرض أنه نجح بمعجزة ما أن ينقلهم الليلة إلى القاهرة، فأي مستشفى سيضع فيها أبي؟ فأباه ضابطاً مقعداً وسيُدخله أي مستشفى تابعة للجيش بالقاهرة فما مصير أبي؟، واتفقوا أخيراً أن ينتظروا حتى الصباح ولنرى ما ستؤول إليه الأمور.

غادروا جميعاً ولم يعد في البيت سواي وأمي وأخوتي الصغار، فالمصيبة لا يتحملها إلا أصحابها. وبتنا ليلتنا تلك لم نذق فيها طعم النوم.

******

في الليل تطفو الذكريات على سطح العقل وتستيقظ الحقائق ويجد المنطق مستقره بعد نهار لا يعرف سوى العبث والجنون. قضينا ليلتنا تلك نفكر في مصير أبي ومصيرنا. ماذا لو نجا من الحادث بضرر كبير؟ من أين لنا بثمن علاجه؟ وماذا لو أقعدته الإصابة عن العمل، من سينفق علينا وجميعنا مازلنا ندرس؟ بل ماذا لو لم ينجُ منها؟ وماذا عن علي لو مات؟ أيتحمل أبي مصيبة موته كما تحمل إصابة الطائش من قبل؟، الليل مصيدة فويل لمن لا يجيد المراوغة بل الويل لمن لا يكف عن التفكير.

الآن نائماً في المشفى لا يجد من يعتني به يا حبيبي، لا أحد يقدم له أكلاً أو شراباً، لقد قلت له ألا يسافر ويعمل هنا كما يعمل، يرضيه الله برزقه كل يوم ويبيت معنا مطمئنين عليه، علي هو من ألح عليه ليذهب معه، العمل

تابع له فما دخلك يا حبيبي بعمله!، وما لنا والعمل على طرق الغردقة! ألا سامحك الله يا علي!

لم يكن يحتج يا أمي إلى السفر ليصيبه ما أصابه، فلندعو لهما ولننتظر الفرج.

طلع النهار وكان أول الوافدين علينا هو عمي الدكتور صالح، لو كان لي أن أكتب وصفاً دقيقاً لما يجب أن يكون عليه الأخ لأشرت على عمي بأصابعي العشرة، هذا الشاب الثلاثيني ذو الطول الفارع والوجه الدائري الأبيض الذي ترتاح العيون لرؤيته يمثل معنى وقيمة الأخ لأخيه ومعنى العم بالنسبة لي ولأخوتي ولي على الأخص.

اتصل بعبد الظاهر ليعرف منه كيف تجري الأمور معهم الآن، وعرفنا بعدما أنهى مكالمته أنهما بالفعل خرجا من المشفى مبكراً وفي طريقهم الآن لمستشفى كوبري القبة بالقاهرة وسيصلان تقريباً بعد العصر. استعددنا نحن للسفر إلى القاهرة واتفقنا من سيذهب ومن سيبقى وتحركنا أنا وأمي وعمي وخالي الذي وصل لتوه من العمل ووصلنا الساعة الثالثة ظهراً فوجدناهم قد سبقونا. دخلنا المستشفى بيسر بعد أن توسط لنا أحدهم لندخل جميعاً، وذهبنا لغرفة الاستقبال فوجدنا أبي ممداً على مقعد حديدي متوسداً يداه، مُضمد الرأس ووجهه ملطخ بالدماء الجافة. كان ذلك المنظر بمثابة طلقتي الرابعة حزناً على حاله وشعور بقلة حيلة تجاهه، استلقى هنا حوالي الساعة لم يتح له دخول العيادة ولا تلقي أي علاج لأنه فقط غير تابع لدفاتر الجيش. ما يُرثى له حقاً هم هؤلاء الأطباء الذين

يطوفون في كل مكان ولم يفكر أحد في سؤاله كيف حالك؟ أو بماذا تشعر؟، بل الأصح أن نسألهم هم بماذا يشعرون؟ أو بالأحرى هل يشعرون ؟!

اعتدل أبي فور أن رآنا وسالت دموعه، ولا أعرف لم؟ هل حزناً على حاله؟ أم حزناً علينا ونحن نراه على هذه الحالة؟ أم شعوراً بالتقصير منه لأنه خرج مسافراً ليحسن دخلنا قليلاً والآن سيزيده سوءً؟ أخرجناه من المستشفى لنأخذه إلى مستشفى الحسين الجامعي حيث يعمل عمي وهناك يمكن الاعتناء به، ذهبنا وتركنا علي و ابنه في المستشفى فعلاجه سيتم هنا.

بعد فحص من مجموعة أطباء وعمل أشعة مقطعية على رأسه تبين لنا أنه سليم ويمكنه الخروج، إلا أن طبيب الأشعة قد أكد علينا أن نأتي غداً لعمل أشعة مرة أخرى على رأسه، وعدنا غانمين. ولكن كان طبيب الأشعة على حق فبعد عمل أشعة مرة أخرى في اليوم التالي تبين لنا أنه مصاباً بكسر في الجمجمة سيلتئم بالعلاج والراحة. حمدنا الله على هذا وبدأنا رحلة العلاج.

بيد أن المصائب لا تأتي فرادى، فبعد أن اطمئننا عليهما وعاد علي إلى بيته بعد أسبوع قضاه في المستشفى، اكتشفنا أن أبي مُدان بتحطيم السيارة وأن تكاليف صيانتها سيتحملها الاثنين معاً، وبالنظر إلى حال السيارة الآن لا يكفي عشرون ألفاً لإصلاحها.

قد تبدو هذه الأرقام بالنسبة للبعض هينة فتراهم يتعجبون من مبالغتي في الأمر، وقد يتشدق البعض فيقول بأن المال أمره هيناً والمهم هو

سلامته، ولكلاهما الآن يجب أن تُكمم أفواههم! فمبلغ عشرة آلاف جنيه نصيب أبي من الصيانة بالنسبة لحالنا الآن كالجبل العظيم.

ولأن لا أحد يدرك ثقله أكثر مني وأمي، قلتُ بحدة: ما دام العمل تابع لعلي والعربة تابعة لعمله، وكان هو من يقود حينها لماذا يدفع أبي شيئاً؟ ألم يكفينا ما ناله من مرض لم يُشفى منه حتى الآن؟

سنرد عليهم بذلك. قال عمي، فلا دخل له بهذه السيارة.

وماذا لو أصروا على أن يُشركوه في إصلاحها؟ قالت أمي.

لنأمل خيراً ولننتظر حتى يأتينا ردهم ونقرر حينها ماذا نفعل. ردّ عمي.

من عجيب سلوكنا نحن البشر أننا نتفق جميعاً على معاداة أشياء بعينها كالموت والمرض ومثل تلك من مصائب، ونتفق أيضاً على حب أشياء بعينها كالأفراح والمال وتمجيد أشياء أخرى كالقوة والسلطة والمنصب، نقف فيها بجوار بعضنا، نهئ ونبارك ونواسي ونشدد أزر بعضنا البعض. ونكون في هذه المو اقف كالرجل الواحد، نحب ونكره معاً ولا مجال لاختلاف ولكن حين يرتبط فرحنا وحزننا بفعل شخص ما نقف أمامه كالأسود متأهبين للانقضاض عليه لنحصل على ما نريد ويقف هو وإن كان على خطأ شاحذاً قرونه كثور يدافع عن حياته. وهنا كنّا في موقف مشابه، علي مُطالب بإصلاح السيارة وتسليمها كما كانت لصاحبها و أبي كان مُطالباً بمشاركة علي في ذلك، كان أبي فريسة علي وكان علي فريسة صاحب السيارة، ولكي لا يتحملها علي لوحده تحول إلى مفترس يطارد أبي.

اشتد الحديث بيننا وبينهم وللفصل في الموضوع اتفقنا على عمل جلسة قضاء ودية نحتكم فيها إلى قرارهم. ولم يمر إلا يومين وكنا نجلس في بيت أحد كبراء قريتنا في حضرة ثلاث قضاة من خارجها للبت في القضية، وبعد جلسة استمرت حوالي الساعة، شهدنا فيها الكذب المبين من علي وأهله ولمسنا مدى بؤسه كان الحكم لصالحنا وعليه فعلي هو من يتحمل تكاليف صيانة السيارة وحده.

انقضت تلك الفترة الكارثية بحلوها ومرها، وخرجنا منها بشهر عسير بدون عمل لأبي وإصابة في رأسه كادت تودي بعينه تماماً بعد أن أتلفت العصب السابع المسئول عن العين، شفي أبي وشفي علي ولا نعلم أدفع المال أم لم يدفع حتى الآن ونسينا تماماً ما حصل أو تناسيناه وعاد أبي لعمله المعتاد واطمأنت أمي لذلك، وأكرم الله عمي و افتتح عيادته الخاصة وذكّرنا ذات يوم في جلسة عائلية لطيفة بأن علي جاءه العيادة ليفحصه وتذكرنا ما مضى برضا و ابتسامات آسفة على تلك الفترة.

وفي يوم لم أنساه ما دمت حياً، سمعنا حشرجة مكبر الصوت في المسجد أمام البيت يُعلن خبر وفاة علي. مات مديوناً كما عرفنا من جيرانه، مات من الحسرة. و أيقنت حينها أن سعادتنا نسبية وبؤسنا في هذه الحياة أبديٌ، وأن الجحيم في انتظار من يرى الأمور بعينه فقط.

عالم موازي

تخيل؛ لو كان في استطاعتك، غرفة واسعة مستطيلة الشكل، صُنعت جدرانها الأربعة من الزجاج الشفاف، مضاءة بنور أبيض ضعيف يتسلل ببطئ من داخل الغرفة إلى خارجها، لا يوجد بها أية نوافذ، فقط باب للدخول في أول الغرفة وآخر للخروج في الجهة المقابلة، رُصت بمقاعد من نفس النوع ذات أغطية بيضاء، يفصل بينها ممر يصل البابين ببعضهما. وعلى المقاعد يجلس رجال وأطفال ونساء، ممتلئة عن آخرها إلا مقعد واحد في منتصف الغرفة تماماً، وعلى أحد الجدارين الآخرين عُلقت شاشة تليفزيون مستطيلة تغطي مساحتها ربع الجدار تقريباً.

وتسمع صوت احتكاك مقعد بأرضية الغرفة الصلبة.

أضاء نور أحمر صغير قوي من مكان على الحائط بجوار الشاشة، فتحولت عيون الجالسين إلى الكرسي المواجه للضوء، حيث يجلس طفل قد نزع إحدى سماعات أذنه البيضاء التي يرتديها واستدار بكرسيه ناحية رجل نحيل يجلس بجواره. بوجه قلق، رفع الرجل يده اليسرى وأعاد السماعة على أذن الطفل من جديد، فانطفأ الضوء الأحمر وعادت أنظار الناس إلى ما كانت عليه، مُحدقة في الشاشة السوداء أمامهم.

صوت الشاشة تعمل.

ازداد الجالسين انتباهاً، واسترخت عضلات وجوههم، غير منتبهين للضوء الأحمر الذي توهج من جديد. فها قد بدأت المباراة.

بوجه غاضب هذه المرة خلع الرجل سماعة أذنيه و انحنى ناحية الطفل وقال: بسرعة، ماذا تريد يا طارق؟ فها نحن نُتلف آذاننا.

مرت عشر ثوانٍ كاملة قبل أن يستجيب الطفل لحديثه.

ما أبطأك!

ابتسم الطفل بمكر وقال: لا أعتقد أني الأبطأ على أية حال.

- لماذا لا تنتظريا صغيري حتى نعود إلى مسكننا؟
- أريد أن أتحدث معك الآن وليس وقت آخر.
- هات ما عندك.
- أرغب بشدة في مشاهدة شيء آخر اليوم غير هذه المباراة، لما لا تحاول أن تغير هذه القناة؟
- ولماذا نغيرها؟، قال الرجل باستغراب.
- لقد مللت مشاهدة هذه المباريات، ففي كل أسبوع نجلس نفس الجلسة على نفس الكراسي وفي نفس المكان، ننتظر بدء المباراة فنشاهدها ثم نستمع إلى الموسيقى بعدها ونعود، ألم تمل أنت يا أبي؟
- ماذا تقول!، لا يجب أن نعترض على ما تبثه الشاشة.
- ولم لا؟
- ممنوع الاعتراض عليها، وكفاك كلاماً، ضع سماعتك على أذنك وشاهد المباراة.

- تتحدث وكأن الله هو من يتحكم فيها، نحن نعرف ما نحب أن نشاهده أكثر من أي أحد. صرخ الطفل.

ولحسن الحظ كانا الوحيدين مَنْ لا يشاهدون المباراة، ولذلك لم يسمع أحد صراخه، فالكل مرتدٍ سماعته.

- فقط يا صغيري، الأمر أنه إذا شغلت قناة أخرى في غير ميعادها كأن تزيل هذه السماعات عن أذنك للأبد، الصمم في كلتا الحالتين ينتظرنا.
- أكره هذه الشاشة وهذه السماعات أيضاً.
- لماذا ؟!
- لا أحب كرة القدم أصلاً، وهذه السماعات تمنعني من الحديث معك ومع هؤلاء الناس، فلن تسمعني إذا تكلمت، ولا يجرؤ أحد، حتى أنت على خلعها.

حاول الأب كظم غيظه، وقال: تذكر بأنه لا يمكننا سماع أي موسيقى أو مشاهدة أية مباراة سوى أمام هذه الشاشة، ولولا هذه السماعات ما استطعنا سماع شيء.

- أكره الموسيقى والمباريات.
- هل سمعت المعزوفة الجديدة التي يقول فيها المغني "وطني ما أحلاك.. وطني ما أجملك"، ستبدأ بعد المباراة وستعجبك بالتأكيد.
- لا، لم أسمعها، ولكن هل تعني لك هذه الأغنية شيئاً؟

للحظة سكت الأب. هل تعرف المكان الذي نعيش فيه هذا؟ هذه الأرض وهذا البلد، حيث نستطيع التنفس بحرية على عكس أماكن أخرى تؤخذ ضرائب على التنفس، ونستطيع سماع الموسيقى ومشاهدة المباريات -الكثير من المباريات- ونلبس هذه السماعات لنحمي أنفسنا من التلوث الذي يصيب بالصمم، هذا يسمى بالوطن. أليس من واجبك أن تشكر من وفّر لك هذه السماعات النادرة فساعة واحدة في اليوم بدونها خارج المسكن ولن نستطيع السماع مجدداً.

ولكن، لا يبدو هذا الوطن رائعاً أو مميزاً كثيراً، ففي حصة التاريخ يُقال لنا أن أجدادنا استطاعوا العيش بدون هذه السماعات دون أن يُصابوا بأي صمم وأنهم استطاعوا -بكل حرية- سماع ما يحلو لهم ومشاهدة ما أرادوه وقتما أرادوا، واستطاعوا التحدث في أي وقت وأي مكان ومع أي شخص، أما نحن فلا نستطيع التحدث إلا في المسكن المعزول، الحقيقة أنني أتمنى أن نعيش كما عاش أجدادنا.

بكل حذر، وبصوت أقرب للهمس، قال الأب: لا أتمنى أن أسمع هذه الكلمات مجدداً فهذا يخالف روح العصر.

هل تعني ب"مخالف لروح العصر" أنه يخالف إرادة من يتحكم بهذه الشاشة؟

بنفاذ صبر، قال الأب: بشكل ما ولكن أتعرف شيئاً يا طارق... طارق!

وضع الطفل سماعات أذنه وعدّل من جلسته وبدأ يشاهد المباراة، وللحظة شعر الأب بحزن عميق.

انتهت المباراة وبدأت موسيقى كلاسيكية رتيبة تصدح في أرجاء الغرفة، استمرت لمدة عشر دقائق وقرب نهايتها من شريط التشغيل أسفل الشاشة، بدأ الناس في النهوض تِباعاً، الأقرب لباب الخروج أولاً ويليه الجالس بجواره. لاحظ البعيدون عن الباب أنّ الشاشة لم تُغلق بعد فجلسوا مجدداً، فرآهم الواقفون بانتظار أن يُفتح الباب لهم فاضطربت حركتهم وعادوا مجدداً إلى مقاعدهم، دون أن يصدر أحد صوتاً. ظهر على الشاشة رجلٌ أنيق يرتدي بذة سوداء وعليها رابطة عنق زرقاء، يبدو في الستين من عمره، جالساً مسنداً يده على مكتب أمامه من الخشب المطعم بالعاج، وخلفه على الحائط الأبيض يتدلى سيف في مغمده، يظهر منه جزء لامع وكأنه صُنع الآن، وبجوار السيف عُلقت لوحة يظهر فيها أسد جريح ينظر إلى السماء الرمادية. انتهت الجلبة التي أحدثتها أقدام الواقفين وجلس الجميع مجدداً.

بابا، من هذا؟ قال طارق.

لم يأته جواب كالعادة، فجلس بجوار أبيه مندهشاً مثله.

مساء الخير. تنحنح الرجل في الشاشة.

يبدو أننا نمر جميعاً بظروف عصيبة لم نعهدها من قبل، وإن جاز لنا القول يمكن أن أقول أننا نمر بكارثة حقيقية، يمكنها أن تقضي على ما بقي من انسانيتنا، بل ويمكنها أن تتسبب في إخفاء بلدنا من الوجود.

أيها المنتقون، لكم أقول بأننا تغلبنا بقوتنا على الصمم الذي جلبه لنا ذلك التلوث، وتجاوزناه بنجاح إعجازي تخطى نسبة المئة بالمئة ولم يصب أحد بضر، والفضل يرجع لما طورناه لكم من سماعات أذن حجبت عنكم

الأذى ولم تحرمكم من أدنى حقوقكم الترفيهية، فربطناها بشاشات عملاقة كالتي أمامكم يمكنكم من خلالها الاستمتاع قليلاً، وطورنا طريقة تواصل فيم بينكم؛ ليستطع العامل أداء عمله والطالب بأن يذهب للمدرسة والمريض أن يتواصل مع طبيبه ونجحنا في ذلك. ولكننا اليوم في مواجهة عدو أخطرووباء أشرس سيفتك بنا إن لم نتحد ونقف ضده جميعاً، تلوث آخر انبثق من نفس المصدر المجهول يسبب العمى.

تعالت صرخات المشاهدين الغير مسموعة، وبدا القلق واضحاً على عيونهم، حتى لترى أحدهم قد وضع يده أمام عينيه ليتأكد أنه مازال يرى.

أكمل المتحدث. لا تقلقوا فرصيدنا في تجاوز الأزمات لا ينفذ بفضل تعاونكم معنا. أخبركم بأننا طورنا نظارات ذات تقنية عالية، كلفتنا الكثير، ستكون بالنسبة لنا حائط صد أمام تلك اللعنة السوداء. ولكي تزدادوا اطمئناناً ستُوزع عليكم هنا في الأسبوع القادم بعد مشاهدتكم للمباراة مباشرة. نرجو منكم التعاون، فنحن غير مسئولين عن أي حالة عمى تحدث وصاحبها لم يرتدِ نظارته. شكراً لحسن استماعكم.

انطفأت الشاشة، وفُتح باب الخروج، والناس غير مصدقين لما سمعوه، حتى تراهم يُحدثون أنفسهم بصوت عال كالمجانين.

عاد كل منهم إلى مسكنه، ومن بينهم الصغير طارق وأباه الذي لم يصدق ما سمعه.

بصوت تشوبه رغبة عارمة بالبكاء، قال الطفل بعد أن خلع سماعته، بابا، من هذا الرجل الذي كان يتحدث؟

لا أعلم يا طارق، فأنا لم أره من قبل.

هل سنعمى عما قريب؟

بصوت حزين، لا تقل ذلك يا ولدي، فالنظارات ستصلنا الأسبوع القادم.

وما أدرانا أننا لا نعمى قبل انتهاء الأسبوع؟ قال طارق.

من المؤكد أنهم حسبوا الوقت جيداً، وإلا لما قال لنا الرجل "بعد المباراة القادمة مباشرة".

وهل ستكون مثل هذه السماعات أيضاً تحجب عنا الرؤية خارج المسكن؟ قال الصبي.

لم يفكر الأب في إجابة هذا السؤال إلا الآن، فتردد قليلاً قبل أن يقول: لا أعلم.

الآن يمكنك سماع بكاء الصبي.

بعد محاولات فاشلة من أبيه في اسكاته غطّ الطفل في نوم عميق ودموعه تبلل خده الرقيق.

الليل قد حل منذ قليل، ثقيل الظل هذه الليلة، فالنبأ كفيل بأن يبعث على الاكتئاب، إلا وأنه كما في كل المصائب هناك دائماً من لا يبالي حتى لو كان في الأمر موته. كان الأب من الفئة الأولى، إذ لم يستطع النوم، وظل في سريره مستيقظاً يتقلب يمنة ويساراً.

حاول عبثاً أن يبحث في ذاكرته عن شيء يفكر فيه ليخفف عنه النبأ ويساعده على النوم. راجع أحداث يومه، استيقاظه من النوم، ارتدائهما

للسماعات، إفطاره مع ابنه، الذهاب للعمل وتوصيل طارق لمدرسته، عودته من العمل بعد طارق، غداءهما سوياً، مساعدة ابنه في حل واجباته، الذهاب لمشاهدة المباراة والنبأ الحزين، ثم عودته لينام مجدداً في تمام الحادية عشرة. لا شيء يُذكر يستدعي التفكير، إلا أنه كان يشعر بأنه بحاجة إلى سرير أقل حجماً من هذا الواسع الذي لا يناسبه، ولأن شكواه ستكون بلا فائدة؛ ففي كل المساكن توزع نفس الأسرة ومحاولة تغييره سيتطلب جهداً جثاماً ولذلك طرد الفكرة من رأسه.

بجانبه، على مكتب القراءة الصغير، وقعت عيناه على كتاب عتيق، أحس بالرعب فور رؤيته في هذا المكان المكشوف، ترى من أخرجه من مخبأه؟، همّ أن يوقظ الصغير ليسأله، ولكنه تراجع، لنأجل ذلك إلى الغد، هكذا قال بعد أن أحس بتأنيب الضمير. أمسكه بين يديه، قلبه في يده مرتين، وتذكر تحذير أبيه له من ظهور هذا الكتاب، فلقد كتبه مُعارض شهير للنظام كان رافضاً لأن يرتدي السماعات البيضاء معللاً أن الأمر سخف وغير حقيقي، حتى صدر أمر بالقبض عليه، فاستطاع الهرب لمدة شهر، كتب خلالها ثلاث نسخ من هذا الكتاب، حسب اعترافه، وأخفاهم جيداً إلى أن قُبض عليه وتم إعدامه في مشهد مروع أذيع على الشاشات. حذرت السلطات حينها بتداول كتابه، وخصصت جائزة لمن يعثر عليه ويسلمه لهم، ولكن لم يفعل أحد. ازداد قلقه، فقام ليخبأه من جديد، ولكنه عاد وجلس، قلّبه بين يديه بسرعة، كتاب صغير لا يتجاوز المئة صفحة. الغريب أنه لم يفكر يوماً في قراءته، إلا أنه الآن يشعر بنشوة غريبة تجاهه وبرغبة عارمة في قراءته.

قام وأطفأ الأنوار، وأضاء لمبة صغيرة فوق سريره، واندس تحت الغطاء، قرب الكتاب من وجهه وقرأ عنوانه "النجاة" وفتحه.

انتبه الآن للساعة التي تجاوزت الواحدة صباحاً، مما يعني -بحسبة بسيطة- أنه استغرق حوالي الثلاث ساعات في قراءة هذا الكتاب.

الويل لي لو اكتشف أحد وجود هذا الكتاب معي!

ردد بصوت عالٍ دون وعي. الآن وفقط يعلم لماذا تم إعدام صاحب هذا الكتاب، لم يكن تكذيبه فقط لفكرة التلوث ومعارضته للسلطات هي السبب وإنما تخطى ذلك وحاول الهرب إلى مكان آخر، مأكداً للناس أنه خارج هذه البلدة توجد حياة تستحق أن تُعاش، فتجرأ وبعضٌ من أصدقائه في يوم على الهرب ولكن السلطات أوقفتهم وقبضت على البعض منهم واستطاع هو الهرب، أيقن حينها أن أفضل طريقة يخبر بها الناس الحقيقة هو هذا الكتاب فكتب فيه وصفاً تفصيلياً لطريق سري لا تعلمه السلطات اكتشفه بنفسه بعد ليلة القبض عليهم، معلقاً في آخر الكتاب "الآن يمكننا استرداد حريتنا المسلوبة، استرداد ما خلقنا لنكون عليه، استرداد انسانيتنا". أغلق الأب النحيل الكتاب وقام من سريره وكأن أحد يراقبه وخبّأ الكتاب جيداً.

هل حقاً التلوث مجرد أكذوبة؟ هل أجبرونا على إرتداء السماعات ليكمموا فقط أفواهنا؟ هل يكون العمى الأسود مجرد أكذوبة هو الآخر؟، بدا عقله وكأنه آت من مكان بعيد، يصعب عليه التفكير بوضوح وكأنه نسي كيف يفكر، شعر بصداع يجتاح رأسه، نظر لابنه النائم بهدوء فقام وجلس بجواره، وهناك غطّ في سبات عميق.

مر أسبوع وهو يفكر في أمر الكتاب، قرأه خلاله مرتين بحذر. لم يعد الصداع يفارق رأسه، ونتيجة لذلك أصبح أقل نشاطاً عند الاستيقاظ، يقوم فزعاً كل يوم على صوت منبهه فلقد اعتاد الاستيقاظ قبل رنينه مباشرة، إلا أن هذا الكتاب قلب حياته رأساً على عقب.

استيقظ اليوم فزعاً. أيقظ طارق، تناولا الإفطار، ارتديا السماعات، استعدا للخروج، ذهب للعمل واصطحب طارق لمدرسته، عاد من العمل بعد طارق، تناولا الغداء، ساعده في حل واجباته، بعدما أنهى الواجب قال له طارق،

هل سنشاهد اليوم مباراة أخرى؟

لا، لا مزيد من المباريات.

نظر له طارق باستغراب، وقال: هل ستحاول اليوم أن تغير القناة؟

لا، لن أحاول.

ازدادت حيرة طارق وبدا عليه الحزن، سنجلس هنا إذن ولن نذهب؟

التمعت عيناه وقال:

سنذهب إلى مكان آخر، فقلد مللت مثلك تماماً، وسكت قليلاً وقال: سنقابل اليوم ذلك الرجل الأنيق ذو البذة السوداء، ونعطيه هذا الكتاب.

الدُمى قادمة

استيقظت من نومي فزعاً حينما داهمت تلك الكلمات أذني بعد أن أرقت غفلتي و انتزعتني من جنتي على الأرض.

"في حادثة لم يسبق لها مثيل تم صباح اليوم القبض على جاسوس في غاية الخطورة، يُشتبه أنه تابع لتنظيم سري لا نعرف كنهه، تسلمته السلطات المختصة اليوم من أحد أفراد الشرطة المخلصين لإتمام الإجراءات اللازمة، وبعد الكشف الدقيق والفحوصات تبين تورطه في عمليات التجسس والمراسلات، حطّ اليوم على صاري العلم في ساحة مبنى الوزارة لير اقب الداخل والخارج، وبعد تقرير اللجنة الطبية الأول حذرت الحكومة من التهاون مع هذا الوباء الذي استشرى في الآونة الأخيرة، مؤكدة أن أمن الوطن يتطلب بذل الغالي والنفيس، حفظ الله الوطن وشعبه"

لم يتسنَّ لي استقصاء الخبر فالساعة قد تجاوزت الثامنة وهناك عمل ينتظرني، إلا أني اكتشفت مدى حماقتي لتفويت مثل هذه الكارثة عليّ، فالأمر جلل بالفعل، إذ وعلى غير العادة سمعتُ صوت المذيع نفسه يصدح عالياً من المحلات والقهاوي بطول الطريق ويكرر دائماً "جاسوس خطير". وصلت للعمل ولم يتبدل الحال، الكل يتحدث عن الجاسوس و أنا لا أفقه شيئاً. خطر لي أن أسأل أحدهم ماذا حدث؟ ولكني تراجعت حينما تصورت نفسي ملاءة بالية ثُقبت بنظراتهم التي تحتقر جهلي وتخلفي وتتهمني بالتقصير في

الاهتمام بقضايا الوطن الحساسة، فآثرت الصمت ممنياً نفسي أن أعزف على وترهم غداً عندما أعرف كل شيء عن هذا الجاسوس الخطير.

مرت الساعات كئيبة ونسى الموظفون النبأ وتغير حديثهم وعاد مستنقع كلامهم راكداً لا يعكره ذِكر جاسوس أو غيره. ومثلهم عادت المحلات والقهاوي، حتى لتسمع و أنت عائد لبيتك لحنَ أغنية عتيقة ينبعث من راديو قديم منزو بأحد الأركان التي تكونت فيها سحابة كثيفة من الدخان ورضي به العنكبوت بيتاً ومستقراً. وصلت البيت مُنهكاً من الملل الذي اجتاحني منذ صباح هذا اليوم الغريب، فبدلت ملابسي وهرعت إلى التلفاز فنقلته لغرفة نومي وارتميت على السرير مُكوراً البطانية أسفل قدمي، وشغلته. كان الحادث قد بلغ ذروته في الليل، وكالات الأنباء والقنوات والبرامج الخاصة لا تتحدث إلا عنه.

"بطة تحمل جهاز تجسس"

بهذه العبارة زُينت الشاشات وحشرجت حناجر الإعلاميين، وتذكرت في تلك اللحظة و أنا ممدد على سريري الوثير تلك الحادثة قبل شهر، إذ قامت الدنيا عليها ولم تقعد، حتى أن النائب العام أصدر بياناً بخصوصه، أُقيم على أثره جلسة قضاء عاجلة شعارها "دُمية تهدد الأمن القومي" بعد اتهام دمية تقدم برنامجاً شهيراً بالتحريض على عملية إرهابية خطيرة.

كان الصداع في ذلك الوقت قد طرق باب رأسي، ور أيت "الدبدوب" الذي يقبع على المكتب بجوار السرير يحدق في ويبتسم فأغلقت التلفاز و اندسست تحت الفراش خوفاً من خيانته.

قرية الموتى

ندت عني اِلتفاتة سريعة ناحية الضوء الذي أومض فجأة من عمود الإضاءة القائم أمام بيتي، يُذكرني هذا العمود بكل الفلاسفة الذين سمعت عنهم والذي لم أسمع، يومض فجأة فينتبه المارة ويتضح أمامهم الطريق، يظلم فجأة فيتعثروا وتتخبط أقدامهم، هكذا هو الفيلسوف، شمعة مضيئة في ليلة مظلمة، يهتدي على أثره من يمنح لنفسه الفرصة على أن يسمع لكلماته ويفكر في أقواله، ويغرق في الظلام من يبخل بعقله طلباً للراحة، فالتفكير مؤلم بالطبع. وأي فرصة يمثلها الفيلسوف في أوقات الظلم والاستبداد!

وكعادة أي شيء، إما أن يجلب الفائدة أو أن يجلب الضرر، كان هذا العمود مخالفاً لهذا المنطق فنفعه يساوي ضرره، فهو يعمل دقيقة وينطفأ دقيقة، في توالي رتيب ومنظم، حتى أني شككت في بداية أمره أنه مُبرمج ليعمل هكذا كإشارة المرور ولكني تأكدت بعد ذلك من عامل الكهرباء نفسه المسئول عن منطقتنا أنّ ذلك لعطل فيه، وقال "يشتغل دقيقة وينطفي دقيقة أحسن من مفيش"

معه حق "فالشكر له ولك" رددت عليه.

فكرتُ، أنه من الممكن لشيء يُفترض أنه ذو نفع أن يجلب الضرر، فمبتكر الإنترنت مثلاً لم يكن يعرف بأن اِختراعه سيكون سبباً في إضاعة الكثير من الناس لأوقاتهم في التفاهات أو سيكون سبباً في تقويض أركان

بعض العقول التي كفّت عن التفكير لركونها إلى بَخْس قيمة العلم المُتاح على الشبكة العنكبوتية. وتلك السمراء الفاتنة ذات الشفة الخمرية لم تكن تدري أن اِبتسامتها ستحرق قلب أحدهم وتقلب جنته جحيماً مستعراً، رغم أن تبسمها خيرٌ في ذاته. وذلك المفكر العظيم الذي أراد أن ينير الدرب للبشرية -في إعتقاده- لم يكن يدري أن أفكاره ستتسبب في إلحاد المئات من ضعاف الإيمان. و أنا مثلاً لم أكن أعتقد أن يجلب عمود الإضاءة الموجود على مدخل المقابر في أول البلدة هذا الخاطر لي، إذ وفي ليلة شتاء ممطرة كهذه انقطع بي الطريق هناك. الويل لهذه العربة الخربة عندما أعود!، كنت أهذي كالمجنون من شدة الإرهاق والتعب بعد نهار عجيب قضيته في إحدى القرى النائية بمدينة فاقوس بمحافظة الشرقية، كنت مدعواً لحضور فرح ابنة زميلي في العمل الأستاذ أحمد حجازي، استأذنت للإنصراف حتى يتسنى لي لحاق القليل من النهار المتبقي، فالطريق أمامي ما زال طويلاً للوصول إلى القاهرة، وبالفعل غادرت القرية حوالي الساعة الخامسة، وما إن تحركت حتى حلّ الليل سريعاً، ولأني عانيت من طريق الذهاب لسوء رصفه والإزدحام غير المتوقع في هذه المحافظة التي يبلغ عدد سكانها سبعة ملايين تقريباً، قررت أن أغير الطريق، و بعد سؤال رواد الطرق دلوني على طريق مختصر لتوصيلي إلى الطريق السريع مباشرة، لم يخب قراري وسلكت الطريق الزراعي المقفر الخالي من أي ازدحام و انطلقت. بعد نصف ساعة من السير الهادئ تعطلت السيارة و أقسمتْ أنها لن تعمل بعد محاولات عدة مني، وبدأت الرياح الباردة للقرية التي توقفت على مدخلها تعصف وكأنها تنتظر وقوفي. أغلقت السيارة

وترجلت ناحية القرية آملاً أن أجد أي ورشة ميكانيكا لأستطع إصلاحها، عند مدخل القرية تقبع مقابرها الطينية، وكأنها ترحب بالقادمين قائلة "أهلاً بكم في قرية الموتى"، ابتسمت لذلك الخاطر وتقدمت أكثر ناحية ضوء ينبعث من غرفة على الجانب المقابل للمقابر، غرفة قائمة بذاتها لا يوجد بها سوى باب خشبي استحال لونه إلى الأسود وشباك صغير ينبعث منه دخان كثيف، يبدو أن أحداً مستيقظاً هنا، تقدمت وطرقت الباب طرقتين فأتاني صوت خشن لرجل خمنت أنه في الخمسين من عمره.

من؟

أنا... ترددت قليلاً، يا لحماقتي! وهل يعرف هو أحداً يسمى "أنا"؟، فقلت: أنا محمود الصاوي.

فتح الرجل ولم يخب ظني، كان في الخمسين من عمره أو أقل بقليل، مازال محتفظاً بعافيته، يرتدي جلباباً وعلى رأسه عمامة كبيرة لفّ طرفها حول عنقه، تفحصني دون كلام، فاعتقدت أنه يجب علي أن أتكلم، فقلت: السلام عليكم يا حاج؟ يبدو مجدداً أنّ كلماتي لم تكن جيدة، فبعد قولي "حاج" ندت عنه ابتسامة غريبة، فقررت التحدث مباشرة، هل يمكن أن تدلني على أقرب ميكانيكي سيارات متواجد في هذه القرية؟

فتح فمه أخيراً وتحدث، لا يوجد في القرية أي ميكانيكي في هذا الوقت، تفضل أولاً بالدخول.

سبقني إلى الداخل ولم يترك لي مجالاً للرفض، فرأيت أنه من الذوق أن أدخل، فدخلت وراءه، وجلسنا على دكة مغطاة ببطانية من الصوف، وقال لي يبدو أنك ليس من (العزازي)، فما الذي أتى بك إلى هنا؟

عرفت منه أن "العزازي" هو اسم هذه القرية فقصصت عليه استئذاني من فرح ابنة صديقي، وسلوكي لطريق آخر دلني عليه أحد سواقين الميكروباصات، وتعطل سيارتي بالقرب من هنا، حتى وصولي إليه، وسألته مرة أخرى أين يمكنني أن أجد ميكانيكي.

صب لي الشاي من البراد النحاسي الموجود على الموقد أمامنا، وقال: هنا ولكن صباحاً، فالورشة الوحيدة في القرية صاحبها لا يسكن فيها، يفتح بالنهار ويغلق أبوابها مع المغرب، ثم علّق بأنه في هذا المطر الشديد لا يمكن أن تجد أي ورشة مفتوحة حتى ولو كانت في بيت صاحبها.

شكرته على الشاي بعد أن تجرعت مرارته، ولاحظت الآن الندبة الموجودة على عنقه، وفكرت ماذا أفعل؟ أتصل بصاحبي وأحاول أن أعود إليه، أم أنام في السيارة حتى الصباح ثم أصلحها وأكمل طريقي، بدا لي الخيار الثاني أفضل، فصاحبي الآن مشغولاً بالزفاف، ولا حاجة لأن أحمله عبئاً آخر، كما أن وجود مواصلات هنا سيكون مستحيلاً ، فهممت بالإنصراف والعودة إلى السيارة، إلا أن الرجل قال لي، من أين أنت إذن؟

من القاهرة.

عرض الرجل علي حينها أن أبيت ليلتي معه، فالحجرة بها سرير يكفي لاثنين، وهنا دكة لو فضلت النوم عليها، قال. وألح علي وشدد أنها ستكون

إهانة له لو نمتُ في السيارة. وتحت صوت الرياح والمطر بالخارج ودفء الغرفة وإلحاح صاحبها قررت أن أبيت ليلتي معه وللنهار عيون.

لاشك أنك تتعجب من وجود حارس هنا في هذه القرية الصغيرة يسكن أمام المقابر.

فعلاً، شيء غريب.

السبب أنه قبل عشر سنوات أُصيبت القرية بلعنة السرقة، أصبح لا يمر أسبوعاً إلا وتحدث حادثة سرقة، عاشت القرية في جحيم تعاني الخسائر تلو الخسائر، ولأن أقرب مركز للشرطة يبعد عنها حوالي ساعة بالسيارة، استمرت عمليات السرقة لمدة شهر تقريباً، حتى اعتزم سكان القرية على حمايتها بأنفسهم، وعلى حد قولهم، تناوبوا في دوريات مطوقين القرية من كل جوانبها حتى خفت السرقات وانتهت، ولكنهم خافو إن انقطعوا عن هذه الدوريات أن ترجع السرقات كما كانت، فعزموا على تعيين حارساً للقرية على أن يعطوه أجراً يُجمع من كل البيوت، لم يكن أحدٌ في القرية يجرؤ على تولي هذه المهمة بمفرده فلم يجدوا من يحرسها، حتى دلهم أحد كبار القرية عليّ، وبسبب أني أعيش وحيداً في القرية المجاورة وافقت على العرض، فبيتي هناك ليس أفضل بكثير من هذا، فبنيت لي هذه الغرفة أمام المقابر في أكثر الأماكن أماناً بالنسبة للسارقين، وبدأت عملي أتناوب على مداخلها في الليلة مرتين، والله يعلم كم سيطول عملي هذا. لا أخفي عليك سراً فالسرقة مازالت مستمرة، فرجل واحد في مثل سني لن يستطيع أن يمنعها بمفرده، ولكنهم فضلوا قلة السرقة على كثرتها.

وسكتَ قليلاً وأطال النظر إلي وقال: أتعلم أنه إن لم يدافع الإنسان عن نفسه فلا يستحق الحماية، سأحكي لكي قصة حدثت معي قبل سنة ولم يصدقها أحدٌ من القرية، واتهموني بالخرف.

في ليلة ممطرة كهذه سمعت صوتاً وكأن أناس يتعاركون يأتي من المقابر، أخذت بندقيتي ومشيت بهدوء ظناً أنهم اللصوص، طفت المقابر حارة حارة، ولم أجد أحداً فقلت ربما كان صوت تعارك كلاب أو شيء آخر، فعدت للغرفة وما إن دخلت حتى وجدت رجلاً نحيلاً، يرتعد برداً، يفتش في خزانة ملابسي كالمجنون، زُعر عندما رآني مصوباً بندقيتي ناحيته وتسمر في مكانه وأخذ يبكي بحرقة ويهذي بكلمات لم أتبين منها سوى "ستموت أمي". ولأن شخصاً بهزالته لم يكن ليخيفني أبداً خفضت بندقيتي ووضعتها أرضاً وسألته ما اسمك وماذا تفعل هنا؟ وبفمه المرتجف ومن كلماته المتقطعة عرفت أن اسمه خالد، ولساعة ظل يحكي لي عن أمه المريضة المقعدة بالبيت، أخبرني أنه هو السارق الذي جلبوني هنا من أجله، بل تمادى فقال لي أني ضيقت عليه عيشه، وازداد نحيبه لما رآني قد أمسكت البندقية من جديد، وأمطرني بوابل من الحكايا والمصائب التي حدثت له مما جعلني أشعر بالخزي لتضيقي عليه، رغم أني لا أعرفه، و أقسم لك يا أستاذ أني لم أجرؤ على الإمساك به وتسليمه للشرطة، فما رأيته في عينيه كان صدقاً وحقيقة. ولأنك غريباً عن هنا سأخبرك سراً، خالد مازال يسرق حتى الآن تحت حراستي، أحلفك بالله ألا تستعجل وتتهمني بالخيانة. هذه القرية يا أستاذ تأبى أن تساعد أحداً ولكنها رضيت بأن تؤخذ منها عنوة، أقسم لك مرة

أخرى أنه لم يجبرني على ذلك إلا عندما تيقنت صدقه ور أيت أمه العجوز المريضة، ولا تقسو علي في حكمك إذا ما غادرتني، فما لم تجربه يوماً لا يكون حكمك عليه صادقاً.

اعتقدت أن الحارس يتلاعب بي، وينسج حكاية من وحي خياله، ولكني لمست مدى تأثر الرجل وهو يحكي، بل وخُيل لي أن دموعه على وشك الهطول وهو يخبرني بأمر خالد وأمه، إلا أنها أبت النزول، واحتفظت عينيه ببريقها الخاص، حتى صدقت حكايته وظننت أن (خالد) هذا أحد أقربائه.

ومضت الليلة بنا، نمت على الدكة وتركت السرير لمُضيفي، نمت هنا بعمق على عكس عادتي التي لا تأمن فيها عيني النوم في مكان غريب، ربما طمأنتني شجاعة الحارس الفيلسوف، فمن يفكر مثله لا يخون أبداً. و أيقظني صباحاً فقدم لي الإفطار فزدته شكراً وأرشدني إلى ورشة الميكانيكا فذهبت إليها وأصلحت سيارتي وعدت إلى البيت، الغريب فعلاً أني الآن أتذكر اسم الحارس، لقد قال لي في وسط أحاديثنا تلك الليلة أن اسمه "خالد" وتعجبت أني لم أنتبه لذلك حينها.

انطفأ عمود الإضاءة من جديد أمام بيتي ، لم يمل التكرار ولم نمل نحن من مشاهدته هكذا، فأغلقت النافذة ودخلت غرفتي خوفاً من البرد، ونمت دافئاً.

هند جارتنا

اشتد بيننا الجدال، وطال النقاش، حتى حسبتنا في سوق أثينا نفترش الأرض ونتجادل كما لم يجادل سقراط العامة، أقول أنا رأيي وتقول زوجتي العكس، أبرهن خطأها فتُصر على قولها، كأننا قط وفأر لا سبيل سوى أن يستسلم أحدنا. ولذلك أطلبكم كحكام وقضاة لفض هذا السوق ولإنهاء الخلاف. لا...لا، ليست مشكلة عائلية، أسمعك يا هذا، لا تقلق فالقضية عامة والبت فيها لم ينتهي بعد. والآن إليك ما حدث....

بدأ الأمر عندما سمعنا صوت جارتنا هند، الفتاة ذات الخمس والعشرين عاماً، تصرخ بجنون، وتأن طالبة الرحمة وكأنها تُعذَب، في منتصف الليل. الغريب ليس في صراخها، فلقد اعتدنا هذا الجنون من بعض الجيران بسبب أو بدون سبب في أوقات كهذه، ولكن الغريب أن مساء اليوم على ما أتذكر كان يوم خطبتها، فما الذي دفعها لهذا؟ ولأننا كنا في أغسطس حيث الحر يُذيب اللحم والعظم، لم نكن نمنا بعد. قمت من على السرير لأعرف أي كارثة قد حلت بهم، ولكن أوقفتني زوجتي قائلة: لا تقلق فالأمر لا يستحق.

ألم تسمعي الصراخ؟

بملل، وكأنها أدمنت تلك الكلمات قالت لي: تقدم لها عريس، وهي لا توافق عليه.

فتاة شابة، متوسطة الجمال، عاقلة؛ ليست بتفاهة معظم فتيات جيلها، أنهت تعليمها الثانوي واكتفت به، فاضطرت لأن تعمل بدلاً من قضاء ليلها ونهارها في وجه أمها العبوس سليطة اللسان. واليوم قد تقدم شاب لها ولم توافق عليه، يبدو أن أمها وأبيها يوبخانها لرفضها وها هي الآن تصرخ طالبة الرحمة.

تمددت ثانية على السرير، بعد أن خلعت عني فانلتي البيضاء.

كان الله في عونها المسكينة، رزقها الله بأم لا تُطاق، قلتُ.

- نعم، امرأة كَشِرة لا تتحرك من مكانها، حتى إن احتاجت شربة ماء تطلب من هند أن تحضرها لها، تعاملها كخادمة وتتمنى زواجها بأقرب وقت من أي أحد كان، معها حق فمهما كانت الأم سيئة فلا أحب على قلبها من رؤية بنتها في بيت زوجها.

وما ذنب البنت، من المؤكد لم يعجبها ذلك الشاب، أتقبل خطبته والسلام؟

- أنت لا تعرف شيئاً، هذه هي المرة العاشرة أو أكثر التي يتقدم أحدٌ لخطبتها وترفض، أمها ستجن.

ربما تحب غيره؟

- سمعت من صباح زوجة عمها أنها تواعد شاباً يعمل معها وتنتظر مجيئه ليخطبها؟

هند؟، مستحيل!

- كما أقول لك، تقول صباح بأنها تعرفت عليه منذ سنتين تقريباً، وبوعد منه بزيارة أهلها ترفض كل من يتقدم لها. ولكن أنت تعرف هيهات أن يأتي الشاب، فالواحد منهم ما إن يجد ليناً من جانب الفتاة وتقبُّل لتوددِه إلا ويقرر قبل أن يكمل لهوه معها بألا يتزوجها أبداً، ولسان حاله يقول بأنها ارتضت الغريب فما يُدريني بأنها لن تفعل بعد الزواج.

ما هذا المنطق؟ فأنا لم أتزوجك إلا بعد أن تعرفت عليكِ في الجامعة، ولولا حديثنا قبل خطبتكِ فما كنت سأعرفك أبداً.

- ليس كل الناس مثلك يا حبيبي، شباب اليوم قد تغير، أصبح لا يرى في نفسه عيباً و إنما البنت دائماً هي المُدانة. أتعرف أن الأمهات وإن كان أبناؤهم تجار مخدرات لا يبحثن لهم سوى عن العفيفة الجميلة.

وهند لم تعرف بِنية حبيبها بعد؟

- الفتاة معذورة، فكل من يتقدم لها لا أرتضيه أنا لبنتي، فواحد يكبرها بكثير وثاني عاطل لا يعمل وثالث سيئ السمعة وآخر متزوج وعنده أولاد. وهي بنت تريد أن تُحِب وتُحَب، صبّرها الله تحت ضغط أبوها وإلحاح أمها، فهي لم تعد صغيرة والعنوسة تدق على أبوابها.

أي عنوسة وهي ما زالت في الخامسة والعشرين، أمجانين هم؟

- يا زوجي، البنت كالميت متى آن أوانها وجب سترها.

ضحكت رغماً عني من كلماتها، فكرٌ عفا عليه الزمن، ولكنه مازال حياً في بيوتنا. صمتُّ ولم أرد وحمدت الله على أن ابنتي ما زالت طفلة تحبو وإلا لكان حديثنا الآن عن تأخر زواجها!

لم أجد رغبة في النوم فنهضت من مرقدي، وخرجت إلى البلكونة عاري الصدر طالباً لنسمة هواء، ما أشد الصيف هذه السنة!، سمعت صراخها من جديد "مش هتجوز بالعافية"، مسكينة هِند، تطلب التعقل في زمن الجنون. تذكرت أول لقاء مع زوجتي قبل عشر سنوات، كانت جميلة وفاتنة، سرقت عقلي من أول مرة رأيتها فيها، قابلتها بعدها بأسبوع وصرحت لها بحبي فتركتني وانصرفت غاضبة، ندمت على إزعاجها، فكان عليّ أعتذر، قابلتها مرة أخرى واعتذرت لها وأخبرتها أني سأتقدم لطلب يدها من أبيها، وبعد إنهاء سنتي الأخيرة كنت أقف أمام بابها، لا يزال حبها في قلبي لم يغب أبداً.

بدأ الجيران يطلون من البلكونات، ويمدون رءوسهم لسماع حديث هند وصرخاتها، فتذكرت بأني عارٍ فدخلت من جديد، ألا ما أقبحهم!، لماذا يتلصصون على غيرهم؟، نعم إن صراخ النساء ليجذب قلوب بعض الرجال ويثير عواطفهم، فما أجمل ضعفهم وأخطره!

بعد قليل من الهدوء سمعت باب البيت يطرق، مَنْ هذا يا ترى، لبست وخرجت لأفتح فوجدته والد هند، رجل خمسيني مكتنز الجسم اسمه عاطف، لا يجمعني به حديث سوى السلام. قال مترددا: آسف على مجيئي في هذا الوقت المتأخر يا أستاذ نبيل.

لا بأس، مازلت مستيقظاً، ماذا حدث؟

أنت متعلم وعاقل، ولا أثق بأحد من الجيران غيرك وإن كان لا تجمعنا أية صداقة ما، إلا أني لا أكن لك سوى كل الاحترام، وصمت قيلاً وقال: أريدك أن تأتي معي للبيت وتهدأها قليلاً، فكما تسمع لا تكف عن الصراخ.

أمهلني دقيقة لأغير ملابسي، قفزت على السلم وصعدت وارتديت جلباباً فضفاضاً، وأخبرت زوجتي واستأذنتها، وكانت على وشك النوم، فلم تمانع. نزلت وذهبت مع الرجل لبيته. أخبرني في الشارع بأن أحاول أن أقنع بنته بالموافقة على خطيب اليوم، فلمست مدى بساطته وحزنه على حال ابنته، وقلت له: إن شاء الله.

دخلت معه، وهدأت هند فور أن رأتني، لا لشيء وإنما خجلاً من أن تبدي ضعفها أمامي، هكذا ظننت، جلسنا وأبيها، حكت لي عن خطيب اليوم الذي يكبرها بثلاث عشر سنة، وعن رفضها لزواجه، سمعت حديثها عن حبيبها فحدثتها بلسان زوجتي، وقلت لها بأن الشاب طالما لم يدخل البيت من بابه فهو لا ينوي زواجاً وإنما يلهو لا أكثر، رأيت الحزن في عينيها. وبّختها أمها أمامي بلسانها البذيء، فطلبت منها بجدية عدم التحدث، واضطررت لاختلاق كذبة بخصوصي أنا وزوجتي وإخبارها بأن الحب لا يأتي إلا بعد الزواج، ذَكّرتها بكبر سِنها وأنها لم تعد صغيرة، وكلما زاد بها العمر قل احتمال زواجها، رغم عدم اقتناعي بمعظم كلامي ولكني كنت مضطراً تحت رجاء أبيها لي قبل قليل، ولمدة النصف ساعة لم أصمت أنا وأبيها، وفي الأخير، هزت رأسها مُبدية اقتناعها بكل ما قلت، ووعدتني بأنها ستفكر بأمر خطيب اليوم مرة ثانية. ودّعتهم وشكرني أباها كما لم يشكرني أحد قبل، ودعوت الله وأنا أغادر البيت أن لا أقع يوماً في هذا الموقف مجدداً.

رجعت اليوم فوجدت زوجتي قد نامت، دخلت غرفة صغيرتي فوجدتها في حلمها الجميل، وقفتُ بجانب السرير دقيقة أتأملها وهي تبدو كملاك رائع، تخيلت نفسي قد رحلت عن الدنيا، فطال بها العمر قليلاً ولم تتزوج، أشفقت عليها وعلى نفسي، وتمنيت بقائي لأجلها. خرجت من عندها و أنا مهموم قلق، خلعت عني جلبابي، وارتميت بجوارزوجتي على السرير متعباً من الكلام وفي دقيقة غفلت عيني ونمت.

بعد حوالي ساعة، استيقظنا فزعين أنا وزوجتي على صوت سيارة الإسعاف يدوي بالأسفل، خرجت أنظر من البلكونة، فوجدت جارنا يحمل بنته على كتفه ويضعها في السيارة والدم يسيل منها. وفي الصباح عرفنا الخبر.

ماتت هند، قتلتها كلماتي، كما لم تفعل العنوسة المزعومة بها.

فوضى مَرَضيَّة

الحياة أصبحت سريعة بشكل لا يُصدق، الشوارع غارقة في الزحام، بوابات العمارات تحول دون انزلاق أقدام المارة داخلها عُنوة، ضباب من الرءوس يحجب عنك الرؤية تماماً، رائحة العطروالعرق تفوح من أجسادهم المتلاصقة بك، حرٌ شديد، فالشمس قد أطلّت هذا الصباح بوجه عبوس حتى يُخيّل إليك بدخول هذا الشارع أن يوم قيامتها قد حان من شدة الحر وهول الزحام، أصوات الباعة تصم الآذان، وسواعدهم تخطفك إنْ فكرت في النظر إلى بضاعتهم، طلاب أزهر أمامنا يرتدون العمائم التي تُضاعف حجم رءوسهم .. يقرأون وِردَهم، وشباب يضحكون من بطونهم، وآخرون قد أرهقهم زحام الدنيا فجلسوا يشحذون ما يسد رمقهم، وهناك، رجلٌ عجوز يُكلّم نفسه وآخر مُستمتع بموسيقى هاتفه في أذنه، وبالقرب منا طفل صغير يبكي على كتف أمه وامرأة شابة تُهاتف صديقها بأعلى صوتها وأخرى هناك يأكل الغيظ وجهها، والأكثرية وجوه عابسة تهرول على الأرض، الكل في عجلة من أمره وكأنه سباق، إنْ سِرت معتدلاً فستبدو كسلحفاة في سباق خيول، وعليك بذل مزيداً من الجهد كي لا تكون ضحية زحامهم، اِفرد ظهرك جيداً وارفع رأسك عالياً وانظر أمامك مباشرة لا إلى أحد وإنما في الفراغ الوهمي أمامك، فهذا قانون السير هنا، ولا تهتم إن داست قدمك على أطراف أصابع أقدام أحدهم وإيَّاك والاعتذار، تظاهر بأنك على وشك أن تفوّت مزاد كريستي بسويسرا وأن تلك الألماسة الزرقاء باهظة الثمن ستضيع عليك،

فقط تظاهر بالأهمية وستبدو كذلك في نظر المسكين ذو الأصابع الدامية، نجحت في العبور ! هنيئاً لك، عُدْ إلى طبيعتك ثانية ولا تنسى روحك في الزحام فتختنق.

هكذا أصبحت معظم شوارع المحروسة ومِثلها أصبحت عقولنا، فوضى، زحام، شتات وجنون يبتلع الجميع، لا أحد يطيق أحداً، صعوبة الحياة وغلوها أعيت عقولنا وشلّت تفكيرنا، فقط العمل ليل نهار لجلب المال هو ما بِتنا نعرفه، أصبحنا عباداً للوظائف، لا يُفارقنا شبحها حتى في منامنا، لا وقت للإنسانيات ولا للأخلاق ولا للدين، رياء وغش وكذب يعمي الأبصار، لا وقت لمساعدة أحدهم فالعيال بحاجة لهذا الوقت أكثر من أي أحد، من لا يزال مُحتفظاً بقليل من عقله يُساعد ويُحب ويُخلص بدون مصلحة فهوعاقل في مشفى للمجانين، ومن لم يبلغ سِنَّ العمل بعد أصبح مُطالباً به كي يساعد في تحمل أعباء الحياة المُكلفة، ومن وُلد لأسرة ثرية يقتله الفراغ ويُصاب بالاكتئاب ويُدمن أدويتها، و مَنْ دونهما مشغول بالحب الذي لا يجده ويُحرمه عليه تقاليد مجتمعه، وبالعمل الذي لا يُجيده وبالمستقبل المجهول الذي ينتظره في ظل ظروفنا الاقتصادية الخانقة، كل عقل يشغله شاغل فأنَّى لهم أنْ يتفقوا في شيء!

ولم تَنجُ القرية من ذلك التناقض الذي يثير الأعصاب، ففي إحدى الحواري الضيقة تسمع أناساً ينتحبون على فراق أحدهم، فالموت قد حصد روح أحد أحبائهم، وفي الحارة المجاورة تشاهد عُرساً من ألف ليلة وليلة، الكل فرح مغبوط مستمتعين بموسيقى صاخبة تُجبر جسدك على الاهتزاز.

أجساد متجاورة وأرواح متباعدة، وبينهما تسير أنت ولا تعرف إلى أي حزب تنتمي، أو إلى أي حزب يجب عليك أن تنتمي، إلى السعداء الأخيار أم إلى هؤلاء الحزانى الأشرار.

هكذا حدثني صديقي حازم اليوم، (توم كروز) كلية الهندسة، أنعته أنا والأصدقاء بهذا اللقب لوجهه الجميل الأبيض الذي يشوبه حمرة تزيده تألقاً، ونحن في طريقنا إلى الجامعة، وقد عزمت هذه المرة على أن أغلبه فقلت:

-يبدو أنك لبست نظارتك السوداء هذا الصباح فرأيت كلَّ شيء أسود؟

لا، بل سواد الأشياء هو ما طغى على عيني وأكسبها صِبغتها تلك، فما رأيت خيراً وتأملته إلا وقد رأيت شراً يقبع وراءه بانتظار الفرصة لفرض سيطرته، أشعر بالعبث يحوم طوال الوقت بأجنحة قوية جداً.

-تقول إذن بأن الشر مُطلق هذه الأيام !؟

لست تفهمني، الشر ليس بمطلق ولكنّه الغالب، نحن مسئولون عنه وليس هو، الواقع نحن من صنعناه وليس هو، الخير قد توارى في التراب لأننا أردنا وأده، والشر قد نما وكَبُر لأننا أطعمناه جيداً، لم نعد ندري ماذا نريد فتاهت سُبلنا واختلطت علينا، سلكنا طريقاً كنا نحسبه جنة فأوصلنا إلى باب الجحيم، بذرنا الأفكار المريضة في بيوتنا وشوارعنا فأنبتت لنا ثمارها الفاسدة، فقر وجهل ومرض وحروب، لم نعترف بأخطائنا فكُنّا أرضاً خصبة نمت فيها بذورها أكثر وتحولت إلى غابة كثيفة عمت أعيننا عن رؤية الحقيقة تماماً.

-يوجد حل إذن لهذه الفوضى طالما أنّ الأمر بأيدينا ؟

بالطبع إنه هاهنا في بيته الأزلي، القلب، يصرخ بأعلى صوته ولكننا لا نسمعه، يقول <<خفّف من وطأة عقلك قليلاً واستعملني ولا تتركني أتعفن هكذا >> .

-لست أفهمك، ماذا تقصد؟

العقل المادي البحت الذي لا يعترف إلا بحدود حواسنا الخمس قد عصب أعيننا وتولى قيادتنا، فَقَدنّا السيطرة عليه فقادَنَا إلى ما أراده، التفكير ثم التفكير ثم التفكير ولا شيء آخر، وطبيعة العالم المادي أنه صعب العيش، وللنجاة منه كان لا بد من زاوية رؤية أخرى غير زاوية العقل ولكننا للأسف أغفلنا ذلك فكان العقل هو الفاعل ونحن المفعول به، أما القلب مصدر سعادتنا قد صار أسيراً.

-جميل، ولكن يبدو أننا ننظر بنصف عين فقط إلى الأمور، فهناك من يرى الحياة ورديّة لا شائبة فيها؟

لا أحب أن أحكم على أحد ولكن مثلهم يستفزني كثيراً، أحاول ثبر أغوارهم لأهنأ مثلهم، هم برأيي إما أغنياء يرون الأشياء من فوق جبال و أبراج؛ فطبيعي أنهم لا يرون الحقيقة التي تسكن هنا وسطنا على الأرض وفي التراب، فهم مُغيبون، وإما أن يكونوا خاضوا معركة العقل والقلب و انتصرت فيها قلوبهم، عرفوا كيف يسرقون السعادة من أحلك الظروف، وكيف يستقبلونها بأذن وعين وقلب طفل صغير، أتمنى أن نكون مثلهم يا صديقي.

شارفنا على الوصول، وغيرنا موضوع الحديث بآلية إلى محاضرات اليوم وتكلمنا عن امتحان (الميدترم) وتواعدنا ككل سنة أن نجتهد في المذاكرة كي نحصل على درجات عالية، كلام شبيه ببعضه لا يتغير، رددناه عشرات المرات بألسنتنا، ولكن إن لم نكرره مجدداً كل صباح ففي ماذا سنتحدث؟، وكيف سنقتل رتابة طريقنا المعتاد؟

ذكرتني كلماته تلك بأول تعارف بيننا منذ ثلاث سنوات، اعتراض على موعد حدده أحد معيدين مادة الرسم الهندسي، كان حازم المعترض الوحيد في الفصل على تغيير الموعد، حينها عرفت كم هي صلبة شخصيته، فبمنطقه القوي استطاع أن يجعل المعيد يتراجع عن قراره ويترك الميعاد كما قُرر في الجدول سلفاً، ومن يومها لم نفارق بعضنا إلى بعد انتهاء يومنا الدراسي وفي الأجازات فقط ، إنّ له نصيب من اسمه حقاً. واليوم يبدو على غير عادته مهموماً بأمر جلل، وفي محاولة مني لثبر أغواره وفك طلاسمه باغته على حين غرة: كيف حال أبيك؟

أبي!، إنه بخير.

-لا أسألك عن صحته أنت تعلم.

بصوت حزين مكتوم: كما هو يا محمود، ما زال يكرهني بلا سبب.

-لا يوجد أب يكره ابنه يا حازم، من المؤكد أنه يحبك ولكن لا يستطيع التعبير عن حبه لك.

لا يوجد أب يكره ابنه إلا أبي، فهو يكرهني وأعرف ذلك، حتى من قبل أن أدخل الكلية وبالتحديد منذ أيام الثانوية العامية، بدا كرهه واضحاً لي، نعتني بالفاشل طوال السنة، حتى بعد تفوقي ودخولي كلية الهندسة، من شدة كرهه لي اتهمني بالغش وبأني لا أستحق هذه الدرجات، لو أنه كان أباً حقاً لتمنى الخير لي ولفرح لنجاحي واحتفل كما فعل من أخي أحمد، ولكني "ابن البطة السودة". لم أعد أطيق الجلوس معه في البيت، وساعات الجامعة بالنسبة لي متنفسي الوحيد، لا نجلس سوياً إلا ويعلو صوته عليّ بلا ذنب اقترفته، على كل حال دعك منه غداً أتخرج ولن يرى وجهي مجدداً.

-آسف يا حازم، ولكن هل تقبل أمك ذلك؟

على العكس منه تماماً، هي سلواي الوحيدة في هذه الدنيا.

لم أزد شيئاً، إذ بقى ساهماً يُحدق أمامه، محاولاً أن يتجنب الاصطدام بأحد، ولولا وجوده بجواري الآن لظننته قد سقط بجانبي مغشياً عليه من شدة حزنه على حاله. تخيلت أبيه وهو فرح بنجاح ابنه الأكبر أحمد الذي يسبقنا بسنتين في نفس الكلية، ونظراته القاسية لحازم الآن، ما أشد أن تكون مضطهداً من عائلتك!، منبوذاً في بيتك وكأنك عورة يجب أن تُوارى، وتصورت خطيأةً كبرى وإثماً لا يغتفر من أمٍ لعوب باركت ضياع شرفها وتنازلت عن شيء من روحها تعلقاً بحب واهن كخيط العنكبوت يُمارس خفية مخافة الفضيحة والعار؛ كانت نتيجته مجيئ حازم إلى الدنيا. وما الذي يجعل أب يكره ابن ويحب آخر، إلا إن كان من لحم ودم غيره؟

وتذكرت حادثة وقعت في قريتنا منذ سنتين تقريباً، كان ذكراها سلوى للمريض عن مرضه وللعجائز عن تقاعدهم وللنساء في مجالسهم وأشباه الرجال عن رجولتهم، "شيماء" الشابة خضراء العينين، خمرية البشرة، فاتنة الطلعة، الفتاة اللعوب التي ذاع اسمعها على الألسنة بعد أن رآها أحد شباب القرية تخرج من بيت غريب بقرية مجاورة، أطلق لهذه الحادثة لسانه وأضاف عليها ما طاب لنفسه من حديث، ولم تكذب الصور كلامه فبعد انتشار الخبر كالنار في الهشيم رأينا صورها الفاضحة وجسدها البض العاري يزين كل الشاشات، ونتيجة لإثمها حملت وأجهضت سراً، ولكن هيهات أن يبقى السر سراً في قرية كقريتنا، ولمدة شهرين كاملين وليس على الألسنة حديث سواها ولولا كثرة الحوادث لظلت ذكراها حية حتى الآن. وفكرتُ ماذا لو تزوجت شيماء من غريب لا يعرف عنها شيئاً و أنجبت بعدها، هل سيكون مصير ابنها كمصير حازم إذا عرف الرجل بأمرها؟

انتبهت لأمن البوابة وهو يوقفني وهو يطلب كارنيه الجامعة الخاص بي، كنا قد وصلنا أخيراً و أنا أنسج خيالاتي المريضة،فانتشلني من أفكاري، ودخلنا الجامعة. ولوهلة اعتقدت أني صدقت الأمر.

مر اليوم كالمعتاد، محاضرتين ثم وقت الاستراحة قابلت حازم فيها وتناولنا فطورنا سوياً، يبدو مرتاحاً الآن عن صباح اليوم، ثم محاضرة أخيرة و انصرفت ولم أقابله في هذا اليوم مجدداً. الغريب أن مشكلته هو و أبيه استحوذت على عقلي بقية اليوم بل ومنعتني حتى من التركيز في المذاكرة، استنكرت انشغالي هذا على نفسي، من الصعب أن أتأثر بشيء لا يخصني،

ولطالما اعتبرت ذلك ميزة كبرى تبعدني عن المشاكل اليومية التي لا تنتهي وتوفر عليّ وجع رأسي، إلا أن هذه المرة لم أستطع مقاومة التفكير في حازم و أبيه، ثمة صوت بداخلي يحاول قول شيئاً، ولكني لا أسمعه، ترى هل يكون ما تصورته حقيقياً؟ وماذا لو كان حازم قد ارتكب جريمة ما يُعاقبه أبوه عليها؟ بل ماذا لو كان أبيه يعاني من نقص ما؟ يبدو أن الأخيرة هي الأبعد على أي حال وإلا لماذا يحنو على الابن الأكبر ويقسو عليه بالتحديد؟

الآن وفقط تذكرت كلمات حازم صباح اليوم "ومثل شوارعنا أصبحت عقولنا، فوضى وشتات وجنون يبتلع الجميع" وهل يوجد جنون أكثر من اعتراف أب لابنه بأنه ابن زنا؟

ولو عادت تلك الليلة من جديد، ما استطعت وصف تلك اللحظة أفضل من ذلك، إذ نفضت عني تلك الأفكار أخيراً فقد حان موعد النوم، راجعت بسرعة جدول الغد وجهزت حقيبتي التي ما زلت أحملها على ظهري كطفل في الابتدائية، وتهيأت للنوم استعداداً ليوم حافل قادم، إلا أن أتاني صوت تليفوني صارخاً في أذني طالباً النجدة من صديقي "الحقني يا محمود، أمي انتحرت".

وعدٌ

لم تشهد قريتنا يوماً كهذا من قبل، الأطفال الصغار الذين لا يكفون عن الصراخ ليل نهار صمتوا ليسمعوا ما تسيل به أفواه الكبار، النساء اللاتي أصابهن الروماتيزم وأصبحن قعداء البيوت لا يقوين على الحركة دبت الروح في أقدامهم من جديد؛ وتراهم في طليعة الحشد، الشيوخ الذين منعهم ضعف البصر عن السير بمفردهم دأبوا يتخذو، دون الجميع، أعور الحارات والأزقة ليصلوا أولاً، غادر المرضى ومن هم في مراقدهم على مشارف الموت البيوت، تخلى محبو العزلة والكسالى والعائدين لتوهم من العمل والجالسين أمام الشاشات كالأسرى عن متاعهم واتجهوا صوب الحادثة، لا ترى على وجوههم سوى أثر الفاجعة، وسحابة من الكآبة تعلو هامتهم ومثلها رابضة في سماء القرية، نهار لم تطلعه الشمس، لا تسمع وأنت تسير وسطهم من الكلام وقواميسه إلا "ربنا يرحمه"، تلهج بها ألسنة الجميع بآلية حتى تحسب أنهم قد تدربوا عليها من شدة الانتظام وعذوبة النغمة. نعم، وماذا يقدر الإنسان على القول أوقات الفاجعة سوى تذكر الله؟، إن العقل ليذهب وبحر الحديث يجف ولا تجد ما يقتل الصمت المطبق ويبث الروح في الأجساد من جديد ليشعرهم بأنهم مازالوا أحياء إلا تمني الرحمة للفقيد.

كان (محمود ناجي) أول شهيد تطاله يد الثورة التي ما فتأت تكوي الجميع بنيرانها وتترك بصمتها على كل قرية، حتى أصبح أهل قريتنا بعد مرور ست سنوات على ذكراها المباركة يلعنونها في كل عشية وضحاها لما يشاهدوه

ليلاً على التلفاز، فأنّى لهم الآن وقد تجرعوا كأس الموت وذاقوا مرارة الفقد بأنفسهم!

في مشهد مهيب تخشع له القلوب وصلنا إلى الطريق العام ،الذي يشق بلدتنا نصفين، وتسلمنا جثمانه مُكفناً بعلم ذو ثلاثة ألوان، إلا أن الأحمر قد طغا في هذه اللحظة و آثر الظهور؛ حتى تحسب أن العلم لون واحد. حملناه على الأعناق وسلكنا به أكثر الطرق اتساعاً لتكفي هؤلاء المحزونون و اتجهنا صوب المقابر.

إن الموت لمصيبة يشعر بثقلها الجميع، فما بين باكٍ وذاكرٍ كنا نهرول وكأننا في يوم المحشر، وِجهتنا واحدة وعقولنا لا تفكر إلا بشيء واحد "الآن سنودع محمود ناجي إلى الأبد"، ذلك الرجل الأربعيني الذي صال وجال في القرية حتى أصبح بيته مع الزمن علامة نحدد بها الأماكن، فنقول مثلاً "بجوار بيت محمود ناجي" أو "بعد بيت محمود ناجي بكثير" وهكذا، ولو كنت من سكان قريتنا لسمعت الشاب منهم يقول: إن محمود ناجي خير من يقدم لك العون والنصيحة، لو حدثته عن الأحلام والأمنيات لوجدته شاباً طموحاً ينسج مستقبله بيديه ويسعى في تحقيقه سعياً، ولو حدثته عن أحوال الناس والعباد لوجدته قلباً طيباً؛ يتألم لمعاناتهم ويسعد لفرحهم، ولو حاولت العبث معه وحدثته عن النساء والزواج لوجدته شاباً لعوباً بخبرات واسعة يحدثك دون أن يضلك أو يغويك. رحمه الله، كان مثالاً يُحتذى به.

أبى أن يغادر محمود ناجي دنياه إلا وله ذكرى في عقل كل أهالي القرية، حتى لتسمع الرجال يتحدثون عن شهامته وكرمه، والنساء يتحدثن عن ذوقه

وأدبه، والأطفال يستبشرون بمقدمه الذي دائماً ما يتبعه حلوى تسيل لها لعابهم.

ولكن كعادة الموت لا يأخذ إلا الأفضل، وصلنا إلى المقابر حيث مرقده الأخير، وهناك اضطربنا قليلاً، واستعادت عقولنا زمام أمرها مجدداً، وتغيرت النغمة التي لازمتنا طوال الطريق وتبدلت فأصبحت "أين سندفنه؟". لم يكن لعائلة الشهيد الصغير التي لا تتجاوزه وأمه العجوز مقابر خاصة بهم، ولماذا يحتاجون للمقابر وهو قد نشأ يتيماً لا نعرف له أهل سوى الأم التي دُفنت العام الماضي في مدينة رسول الله أثناء تأديتها لفريضة الحج، و أبى هو إلا أن يعيش عازباً ليقينه بقرب أجله!، لماذا التفكير في الموت والدنيا أمامنا زاهية ألوانها، تكاد أحياناً لا تشوبها شائبة؟، ولذلك لم يفكر هو نفسه في يوم كهذا.

يبدو أن هنالك ثقب في دماغ كل منا لا يمكننا سده، فقط ضع عينك عليه وسترى على امتداده "الأنا" هناك، جالسة على كرسيها الذهبي، في برجها العاجي، واضعة التاج على رأسها، مُحاطة بسياج حديدية، تأبى التنازل عن مكانتها، حتى لو كان مُتوجِها شخصاً آخر. ولما لم يكن للقرية مقابر للصدقة، ازددنا اضطراباً وطالت وقفتنا وعلت أصواتنا، حتى تحول المشهد لمسرحية هزلية يؤدي فيها كلٌ دوره، وبعد دقائق من النقاش وتبادل الآراء، وجثة الميت تنتظر مثواها، وبعد محاولة إقناع أحدهم بدفنه في مقابرهم الخاصة، تقدمت نحونا امرأة عجوز تخطت الستين، نحيلة، منحنية الظهر، من وسط صفوف النساء، تشق حشد الرجال نصفين، وبصوتٍ احتفظ بقوته قررت

أن يُدفن الشهيد بقبرها، قائلة "رحم الله محمود ورحم أمه، سندفنه في قبري هذا".

زاغت الأبصار، وارتخت الهامات، وظهر الكل على حقيقته، دُفن الشهيد و انصرف الناس وعيونهم في الأرض تبحث عن شهامة أوحلها التراب، ونخوة تاهت منهم في الطريق.

~~~~

في إحدى ليالي الصيف الهادئة، والحر المكتوم بادٍ على الوجوه والأبدان، جلست شابة عشرينية بيضاوية الوجه، سمراء العينين، في صحن البيت تتلقى عزاء زوجها، وحولها طفل لم يتجاوز الثلاث سنوات، قصير القامة جداً، تتعثر به الأقدام إذا جاوزته ولم تنتبه لوجوده، يلهو ويلعب، غير عابء بما حدث، إلا أنه بين كل ساعة وساعة يهرول إلى أمه، وبلسان لم يكتمل نموه بعد يسأل "بابا. . بابا"، تربت الشابة على كتفه وتملس على شعره وتحتضنه بقوة؛ فيهدأ ويكف عن التكرار، وتسيل دموعها على شعره الطويل، فيغادرها ليكمل لعبه. مات زوجها وتركها تواجه دنياها وحيدة بلا سند أو حبيب، وبجوارها تجلس خليلتها، في مثل عمرها تقريباً، تواسيها وتربت هي الأخرى على كتفها؛ علّها تستكين كطفلها.

تكاد مصيبتها تفتك بعقلها، من لها الآن وقد رحل؟، وحيدة هي الأخرى كزوجها التي لم تعرف له عائلة، أسرة من أب وأم وطفل كالجن انحدرت إلى القرية ولا نعرف لهم أصلاً، من سيربي طفلها الذي لا تقدر عائلة كاملة على تحمل شقاوته؟، ذلك الطفل الذي يحمل شبهاً من أبيه، سيغدو رجلاً قصير
~~~~

القامة مثله، أتمّ عامه الثاني ولم ينطق لسانه بعد إلا بكلمات معدودة وباقي كلامه إشارات، كثيراً ما تحملت أمه سخرية على طفلها الذي كان أشبه بكرة دائرية منه إلى طفل حين وُلد، وضحكت بوجهها مع الساخرين من الجيران والغرباء وقلبها يقطر دماً على ابنها الوحيد، سخرية لقصره الملاحظ وامتلاء جسمه وتأخر كلامه، وهل هناك ما يُدمي قلب أم أكثر من السخرية من وليدها؟ الآن لم يعد هناك من يخشاه الناس ويدافع عنه، رحل زوجها، وعليها أن تتعلم العيش وحدها.

بعد طول جلسة وعبارات محفوظة ونظرات تعرفها جيداً لطفلها اللاعب، انفض العزاء وبقيت تلملم جراحها وصاحبتها تواسيها. تُرى كيف سيتربى الطفل؟ لا عائلة لها ولا له، كان أبوه حياً وأرهقنا هذا الصغير الشقي، فكيف وقد رحل؟

تظهر بطولة البعض أحياناً في كونهم ما زالوا عقلاء في زمن الجنون، والبعض الآخر بكونه قادراً على الحياة في وسط مجتمع يُوزع فيه الموت مجاناً على البيوت، وللبعض بكونه مازل قادراً على تحمل مرضه الذي آلمه واستعصى عليه علاجه، ولكن بالنسبة لهذه الأم فبطولتها الآن أن تحيا وتربي ولدها. انصرفت صاحبتها، وأغلقت الأم باب بيتها عليها، ورقدت الآن في سريرها مُحتضنة طفلها "محمود" تتأمله وتتحدث لتطمأنه، وربما لتطمأن نفسها، "ستكبر يا محمود وسيتحاكى عنك الناس، سيتمنون قربك يا صغيري، لا تحزن من سخريتهم عليك فأنت ملاكي الوحيد" والطفل يبنظر لها مبتسماً، يداعب ثغرها الحنون.

عبد الصبور المنزلاوي

أفل اليوم عائداً إلى بيته، يحمل أثقال الذل والمهانة ويبلع غصة آلمته في حلقه، يجر قدمه التي أصابها العطب؛ فلم يعد يقوى على حملها، ماراً بميدان التحرير ومتمتماً "يوماً ما كانت لنا كرامة"، يشعر بقلة قيمته ويعزي وأد كرامته التي انتهكها (عباس باشا) أحد كبراء الشركة التي يعمل فيها ور ائد من رواد الجراج الذي عُيِّن فيه سائساً، بعد أن رأى بقعة وسخة تكونت على مقدمة سيارته المرسيدس السوداء.

أعميت أيها المشلول، ألم أقل لك نظفها جيداً؟

والله يا باشا لقد غسلتها ،دوناً عن باقي السيارات، بالماء والصابون.

قبحك الله!، أتكذب أيضاً، ألم يكفك شلل قدمك وتريد أن تلحق بها لسانك، لماذا لم تزل تلك القذارة عنها إن كنت غسلتها بالماء والصابون؟

أردت أن أقول له إن هذه القذارة مذمنة، ملتصقة لا يثنيها ماء أو صابون، إنها تناسبك تماماً. ولكني لم أجرؤ على لفظها. فعباس باشا ممكن أن يتسبب ببساطة بفصلي عن العمل، فهو ومدير الشركة صديقان، لا أعرف إن صح لي أن أسميها صداقة أم ماذا، فزوجة (حسن باشا) مدير الشركة الكهل تأتي كثيراً إلى هنا بصحبة عباس باشا، تجلس بجواره ،أراهما يتضاحكان ويصل بينهما الهزار إلى امتداد الأيدي فتنل يده من مفاتنها ما لا يخفى على عين مبصرٍ، حتى في إحدى الليالي رأيتهما يتعانقان كعشيقين. حدثت زميلي طاهر يوماً عما رأيته بينهما، وكمن يخشى عاقبة تودي بهلاكه،

قال بحذر: "ننظر ونسمع لأرباب أعمالنا ولا نفتح أفواهنا؛ فيغلقوها للأبد، أسمعت يا عبد الصبور؟"

نظفها بسرعة يا أخرس!

جررت قدمي وجاهدت بخرقتي البالية التي استحال لونها إلى مزيج لا تعرف كنهه من الألوان، وما تراه ببساطة لون الشقاء والتعب لعشر سنين متواصلة، خسرت فيها قدمي في محاولة متهورة مني لإنقاذ سيارة أحدهم كانت على وشك السرقة. كانت الشمس يومها ساطعة في الأفق، والنهار جلي لا تخفى فيه خافية، وأنا جالس في الكشك الخشبي ،المخصص لي ولزميلي للاستراحة، أتململ من الحرّ، سمعت حينها صوت سيارة تعمل، من الغريب أن يغادر أحد الشركة في هذا الوقت الباكر، قلتُ لنفسي وهممت لأنظفها وأنا ألعن عملي الذي لا أعرف فيه الراحة باكراً أو متأخراً، تقدمت من السيارة لأعمل فوطتي فيها، و اقتربت منها غير آبه لمن بداخلها، وإذ بها تزمجر والشرر يتطاير من تحت عجلاتها. صدمتني مقدمة السيارة ولم أستطع من يومها ترويض قدمي، ور أيت السارق يخرج كالريح من باب الجراج، ولم أفق إلى في اليوم التالي على سرير فاخر في أحد المستشفيات وقدمي قد توقفت عن العمل، أتممت علاجي على حساب الشركة وتلقيت عز ائي في قدمي اليسرى الراحلة من باقي زملائي، بل وكُرمت من مدير الشركة شخصياً على شجاعتي وتفاني الز ائف في العمل، فلا أخفي عليكم أن محاولتي لإيقاف السرقة لم يكن إلا خوفاً من اتهامي بالتواطد مع سارقها فيزج بي في السجن، ومُنحت زيادة يومها مائتي جنيه "كاملة" على راتبي، بل وأُلقيت كلمات شكر في حقي في

الحفلة السنوية للشركة، اغرورقت على أثرها عيني ووجدت فيها بعض السلوى. أيام الثورة كانت عصيبة على الجميع، سرقات ونهب في كل مكان، ولولا شجاعتي الاستثنائية لكان عباس باشا أحد ضحاياها. ومما زاد سلواي أنني مُنحت شهادة تقدير كتب عليها كلمات منمقة لا تزال حروفها محفورة في عقلي إلى الآن "شكر وامتنان إلى الأستاذ عبد الصبور المنزلاوي، لشجاعته وتفانيه في العمل" ولطالما رأيت مثلها يُهدى للشرفاء في احتفالات صاخبة تذاع على التلفاز ازدت فخراً. والغريب حقاً أني اكتسبت لقب أستاذ بعد الحادثة، وأنا لم أكمل حتى تعليمي الإبتدائي، بيد أن الشجاعة وإن كانت زائفة تؤتى ثمارها. ولكن هيهات أن يستمر الاحتفاء فبعد شهر تقريباً عادت ريمة لعادتها القديمة وسُحب مني اللقب، حتى السلام بت أحياناً لا أتلقاه. أيقنت حينها أن الألقاب خادعة كالمظاهر وأن الشهادات لا تصنع أبطالاً.

أنهيت تنظيفها، ورأيت من بعيد كريمة (حسن باشا) تشاور مبتسمة لعباس باشا الذي فتح باب سيارته لها وسلم عليها وانصرف مسرعاً بسيارته ذات النجمة الثلاثية.

~~~~

اليوم تقام احتفالية كبرى في شركتنا بمناسبة مرور خمسة عشر عاماً على إنشائها، وككل عام تُفتح أبواب قاعة المؤتمرات الكبرى حتى يتسنى لكل أعضاء الشركة الحضور، وسيكون اليوم حافلاً في الجراج لعبد الصبور وزميله طاهر، اللذان سيبديا اليوم مزيداً من النشاط والإقدام كي ينالا نصيبهما من الموظفين السعداء. ابتدت الحفلة صاخبة، الكل يبحث عن
~~~~

مكان مناسب للجلوس، وصوت المدير يصل جهوراً إلى الجراج بل ويتعداه إلى كبرى المحلات والشركات بالشارع، عباس باشا يتوسط المنصة متألقاً في بلدته السوداء، كبار الموظفين بالأمام ويليهم الأصغر فالأصغر حتى تنتهي المقاعد بصف من الوجوه الكالحة ذوي أدنى المناصب بالشركة.

"اليوم نحتفل بمناسبة مرورعقد ونصف على إنشاء شركتنا العظيمة"

بدأ الحفل الآن، وكالعادة سينادي المدير بصوته الرخيم أسماء السعداء هذا العام لتكريمهم، وكالعادة أيضاً كان عباس باشا أول من سُمع اسمه، وبعد سلامات حارة وعناق طويل كطول عناقه لزوجته تسلم عباس درعه النحاسي الخامس. نادى المدير باقي الأسماء ولم يتبق سوى درع واحد أمامه، "عبد الصبور محمد المنزلاوي"، في تلك اللحظة كان طاهر يسلم أحد الجالسين في الصف الأول مفاتيح سيارته وعندما سمع اسم "عبد الصبور المنزلاوي" فغر فاه ثم تهلل واستبشر غير مُصدقاً، ولما لم يقم أحد لتسلم الدرع تيقن من الخبر، رمى المفاتيح في حجر الموظف الذي رمقه باشمئزاز وسبه في سره وهرول لينادي زميله القابع بالجراج.

كان عبد الصبور حينها منهمكاً في تنظيف السيارات غير آبه بالحفل، يلعب بفوطته فينقلها من يد لأخرى بحركة خبير اعتاد هذا العمل، يفكر فقط في الخير الذي ينتظره بعد انتهاء الحفل، جنيهات كثيرة سيلقيها الموظفون في يده فتطيب له عيشه هذا الشهر، زفر بقوة ممنياً نفسه بعطف المدعوين وحالماً بانتهاء هذا اليوم، حينها قطع عليه طاهر أحلامه عندما رآه يتقدم نحوه مهرولاً، قطب جبينه ثم انفرج غير مصدقاً كلمات زميله التي

قذفها قذفاً على مسامعه، أخيراً .. قُدر تعبي وتذكرني المدير، تمتم وهو يجر قدمه قاصداً الحفل بعد أن رمى فوطته على الأرض. لحظات كهذه يُعوّل عليها، الوقوف أمام المنصة، أمام الحشد العظيم، السلام الحار الذي سيتلقاه وكلمات التهنئة التي ستسكر عقله وستنسيه عناء الأيام والسنين، ما أجملها من لحظة!، إنهما الشكر والعرفان يحولان جلل المهام إلى لعبة مسلية ندمن تجربتها، أخيراً سيتذكروني مجدداً وسأستعيد لحظات مجدي كما كانت أيام الحادثة. دخل إلى القاعة ورجله لا تحمله وصديقه خلفه يزفه ويقدمه إلى المنصة في لحظات أشبه بالعُرس، حيث لا تدري القدم أين تحط ولا العين ماذا تبصر، اتجه ناحية المدير الذي ما زال ينادي "عبد الصبور المنزلاوي" وأعين الجالسين تبحث عن ذلك الأبله الذي تأخر في يوم كهذا، تقدم منه وصعد إلى المنصة ماداً يده ومسلماً عليه، وما هي إلا لحظات ويتسلم درع الشرف والبطولة ويصبح مثلهم، سأعلقه على باب البيت ليعلم الرائح والغادي مقدار قيمته وعظمته، شعر بعيون الجالسين ترمقه بحقد وتأفف، تنظر لتلك الجثة العفنة التي اعتلت المنصة دوناً عنهم ونالت شرف مصافحة المدير ومدعويه النبلاء، مد عبد الصبور يده وبكلمات سمعها مئات المرات في التلفاز حتى حفظها عن ظهر قلب وبلسان مرتجف لم يعتد هذا النوع من الحديث "أشكرك يا سيادة المدير على حسن ظنك وتشريفك لي" الآن وفقط ستنعم يده بمصافحته، وستطرب أذنه بتصفيقهم الحار، وسترفرف روحه في أرجاء القاعة، وهل هناك شرف يساوي شرف ملامسة يد المدير والحصول على الدرع النحاسي!... ولكن يده قد أصابتها البرودة لما طال

امتدادها ويقسم أنه شعر بتيار هواء يتخلل أوصاله جعله يرتجف، أعذرك يا سيادة المدير إنك كهل بطيء أعرف ذلك ولكن لما طال غيابك كل هذا؟ ردد في عقله كمن يحلم، و أفاق من كابوسه على حملقة عين المدير الغليظة وكلمات عباس باشا القاسمة "ماذا تفعل؟"

حينها تأكد من وسواسه الذي لازمه وهو يهرول إلى الحفلة، من أنت يا عبد الصبور حتى تُمنح الدرع النحاسي؟ إنك مجرد سائس حقير لا يراك أحد! ولكن كلمات طاهر زميله قد وأدت هذا الوسواس الذي انتفض حياً أمامه الآن. بهت عبد الصبور وأظلمت الدنيا في عينيه وكي لا يغشى عليه أمامهم جاهد وقال "ألست أنا عبد الصبور المنزلاوي الذي سأمنح الدرع الآن؟"

هنا وفقط سُلبت انسانيته ووأدت كرامته إلى الأبد، ضحك المدير والحضور وبعبارة سريعة من عباس باشا "نعم انت عبد الصبور محمود المنزلاوي، ولست عبد الصبور محمد المنزلاوي" وأشار بيده ناحية رجل يدخل من باب القاعة مهرولاً، وأردف "عُد إلى عملك يا رجل".

لم يشعر عبد الصبور بنفسه إلا وهو يمر من ميدان التحرير عائداً إلى بيته في اليوم التالي، بعد إفاقته صباح اليوم في كشكه الخشبي وزميله طاهر يجلس بجواره واضعاً يده على رأسه، وبدون تبادل كلمات أو نظرات بينهم، همّ عبد الصبور مغادراً الجراج. رفع رأسه ناحية الساري العظيم وسط الميدان وإلى العلم الذي يرفرف وقال "يوماً ما كانت لنا كرامة".

ضياع

"يا صباح الزفت"

كانت تلك أول جملة نطق بها (أحمد صيام) أو أحمد (أرنولد) كما يحب أن نسميه، لعضلاته البارزة التي يغذيها كل ليلة في جيم داود المجاور للجامعة، فور أن وصل. ظهر الدكتور في الممر أمام القاعة الواسعة، لمحته من الباب الذي جلست قبالته، في (البنش) الأول أمامه مباشرة، موقع استراتيجي ممتاز لمحاضرة أخرج منها أسوء مما دخلت، رأيته يشاور لأحدهم ويضحك فيهتز كرشه، تدافع المنتظرون بالخارج عبر الباب فدخلوا، ووراءهم دخل الدكتور وأغلق الباب. همهمات غير مفهومة من رواد الصفوف الأخيرة التي انسلخت من وسطها اليوم، الدكتور يمسح السبورة ويجهز أقلامه ويخرج من جيب بنطاله المتدلي ورقة صفراء، أشبه بورق البردي، مُدون بها ما سيلقنه اليوم لنا. تسمع حفيف صفحات وأوراق تُطوى، أوائل الدفعة بالصفوف الأمامية وضعوا نظاراتهم على أعينهم وفتحوا كتبهم وشحذوا أقلامهم واستعدوا جيداً، ما الذي حشرني وسطهم اليوم!

في هذه اللحظة دخلت إحداهن، التفتت نحوها الأعناق وطُرد النعاس من عيونهم، هكذا ظننت، بدت مفاتنها أكثر إثارة اليوم، وبدت هي أكثر تصميماً على إظهارها. تذكرت ليلة أمس تلك المرأة المحترفة التي شاهدتها عبر شاشة حاسوبي، وتخيلت زميلتنا عريانة، نفس الجسم تقريباً، يا إلهي، لماذا تطاردني هذه الجنيات ليل نهار!

طردت شبحها عني وعدلت تفكيري وقررت على غير عادتي أن أنتبه، ورددت على مسامعي: ما دمت قد استيقظت وحضرت فلماذا عدم التركيز؟

"اليوم سنتحدث عن ..."

طرق الباب، فزم الدكتور شفتيه وسبّ ذاك الذي قطع عليه حديثه، ترك قلمه وذهب للباب كالطور الهائج، فتحه فوجدها "خلود"، زميلتنا التي تزوجت قبل أسبوعين، رمقها الدكتور بطرف عينه ولم ينطق بكلمة، تركها وعاد للسبورة، فدخلتْ وأغلقت الباب. غرقت القاعة في الهمهمات، نكات قذرة تلقى عليها و إبتسامات سمجة تغطي وجوههم، ولكني ابتسمت مثلهم عندما تذكرت اقتراح أحد الزملاء بأن نوفر ثمن المذكرات ونقدمها لها كهدية زواج، مسكين زميلنا لم نرى وجهه إلا بعد اقتراحه بأسبوع.

ما كاد الدكتور يستكمل حديثه إلا وجاءه اتصال هام، بدا ذلك من تقسيمات جبهته والتواء شفته السفلى الغليظة، ترك المحاضرة و انصرف. التفتُ ناحية الفاتنة من جديد التي بدت الآن أكثر ارتياحاً بعد أن خلعت جاكتتها، بدا نهدها الفتي نافراً أسفل قميصها الرمادي، تخيلتها بدونه فتوردت أذني من دمي المُثار، وعاودني خيال تلك المرأة من جديد، ندت عن زميلتنا ضحكة سمعت صداها، فتذكرت تأوهات المُتمرسة ليلة أمس، ليس مجدداً!

عدت إلى مكاني المفضل في آخر بنش، أمسكت هاتفي في يدي ووضعت السماعات على أذني، شغلت الفيديو الذي حملته منذ ساعات قليلة، وغرقت أذني بتأوهاتها من جديد.

بللت الأرض أسفل مني وعدلتُ ملابسي وهممت بأن أعود للبيت لأستكمل نومي.

انتحار

وما الذي يحمل الإنسان على التمسك بهذه الدنيا وبزينتها الفانية إن لم يكن بها صديق أو حبيب؟

الآن وبعد كل هذه السنوات أسأل نفسي هذا السؤال الذي طالما سخرت منه في صغري ونسجت منه عشرات الخرق البالية التي كممت بها أنفاس زميلي، وحجبت بها عن مسامعنا صوته الحق الجهور، وحرمت عقولنا من محاولة التفكير في إجابته ولو لمرة. كنّا طلاباً نلهو ونسخر من بعضنا البعض إذا ما خالف أحد هوانا ولم يذب في حديثنا مهما كان ساذجاً. طلب منا أستاذ اللغة العربية إعداد موضوع عن أكثر شيء نتمنى امتلاكه، قال لنا "اكتبوا عن أحلامكم، أقصى أمانيكم، ما تتطلعون لاستحواذه في الحياة، وستلقونه الأسبوع القادم أمام الجميع". كتبنا عن الأموال والسلطة والسيارات الفارهة، حكينا عن أشهى الأطعمة وأجمل الزوجات وامتلاك القصور والعمارات، وضحكنا على كلمات زميلنا الذي لا أذكر اسمه حين قال بصوته الرفيع الحاد "أتمنى أن أملك جناحين، وألقينا النكات على زميلنا الذي قال "أريد أن أعرف المستقبل" ولكن كانت لكلمة صديقنا إبراهيم "أريد الصداقة والحب" النصيب الوافر من التهكم والسخرية، "أتريد الصداقة والحب يا أحمق؟، أهذا أقصى طموحك يا فقري؟"، لم ينجُ المسكين من شر ألسنتنا طوال هذه السنة، حتى أقسم مدير المدرسة يوماً من كثرة شكوى إبراهيم له بأنه سيفصلنا من المدرسة إذا لم

نبتعد عنه، خفنا من تهديده ولكنه لم يمنعنا، أمسكنا ألسنتنا عنه في الفصل وأطلقنا سراحها خارجه، حتى انتهى العام ولم نعد نراه. غاب إبراهيم ولم يعد من ذكراه شيء سوى جملته تلك "أريد الصداقة والحب".

أخرجني من أسر ذكرياتي تلك صبي المقهى النحيل وهو يضع أمامي كوب الشاي خفيف السكر دون أن ينبث ببنت شفة، وينصرف دون حتى أن ينظر لي، وما حاجته للحديث معي فهو يعرف تماماً ما عليه فعله، كوب شاي خفيف السكر مع بعض الماء، وبعدها بنصف ساعة كوب القهوة ثم ينصرف وفي يده الحساب فلا يعود مجدداً ولا يضطر لإضاعة هذه الثواني أمام وجه صامت ولسان أخرس مثلي. وليس هو فقط من يعرف مطالبي، فلو سألت هذا الرجل الخمسيني ذو الشعر الأشيب الجالس في ركن المقهى بجوار المذياع العتيق لأخبرك بها، ولو تابعت عيون مجموعة الشباب الساخرة هناك لأخبرتك بم أريد. الحقيقة ليست هذه الساعة التي أقضيها هنا هو ما يعرف عنها الناس فقط، فحياتي كلها يوم مكرر، يكفيك أن تصاحبني يوماً واحداً وستعرف تاريخ حياتي الجديد، أعود من عملي الذي اخترته بعناية وهو عامل بإحدى مخازن شركات الملابس التي تعج بها مدينتي في الساعة السابعة، أبدل ملابسي وآتي للمقهى، أجلس ساعة أشرب خلالها شاي وقهوة وأعود للبيت، أتناول العشاء مع زوجتي أياماً وكثيراً لا آكل، أقوم وأغسل يدي وأدلف لغرفة النوم، إن وجدت زوجتي متيقظة فاردة جناحيها على السرير أعرف أنها تدعوني إليها، وإن وجدتها مغمضة العينين على وشك النوم أرتمي بجوارها دون كلمة. اليوم ولحسن الحظ لم أجدها في البيت عندما عدت من العمل،

وبذلك هربت من نقاش حاد تتهمني فيه بقلة الحب والاهتمام، ووفرت على لساني بعض الكلمات المعسولة التي تطيب نفسها لسماعها قبل أن أتركها. آه لو تعلمين يا زوجتي كم هي روحي حبيسة تلك الضلوع الضامرة، وكم تتوق إلى استرداد حريتها من جديد، لتركتني الدهر كله هنا ولم تعاتبيني لحظة واحدة.

"سأحكي لكم اليوم موقفي مع مدير عملي هذا الصباح"

خرجت الكلمات خفيفة من أحد الشبان الجالسين هناك بمواجهة العجوز وبدأ يروي سيل من الأحداث وعيون أصحابه تلمع من حوله كقطط صغيرة وهم يستمعون، وتذكرت في تلك اللحظة صديقي عاطف الذي لم أسمع صوته منذ سنوات لم أعد أعرف عددها، بعد أن فرقتنا الغربة وقطعت آخر صلاتي مع البشر، كنا نجلس هنا وكان ينظر لي وعينه تحمل مئات الكلمات، ولا يبوح فمه بشيء، ولما طال صمتنا الغير عادي بدأته بالسؤال:

إذن، هل ما زلت تفكر بالسفر؟

الحقيقة أني سأسافر بعد يومين وربما تكون جلستنا هذه هي الأخيرة.

وعملك هنا؟

كما تعلم يا صديقي، لا يكفي راتبي الشهر، و أقضي آخر أيامه على سلفة وراء سلفة. أخشى لو أطلت المكوث هنا أن تتراكم علي الديون ولا أقدر على سدادها.

وزوجتك، وطارق ابنك هل ستأخذهما معك؟

نعم، رتبت عمل لها، واستخلصت لطارق أوراقه اللازمة ليلتحق بالروضة هناك. ثم صمتَ قليلاً وقال: و أنت يا ماهر ألم تفكر في السفر؟

لا حاجة لي به، مرتبي هنا بجانب معاش أبي يكفيني وزيادة، فلا زوجة تنفقه ولا طفل يحتاجه.

يا بني، العمر يجري ولا زلت على قرارك هذا؟ ألن تنساها أبداً؟

وكيف أنساها يا عاطف وكل شيء حولي يذكرني بها، (نوران) وهل دفاتر النسيان يمكن أن تطوي ذكراها؟ أتذكر يوم أن هاتفتك وأخبرتك بحبي لها؟

نوران زميلة الدراسة بهجة الأيام ونور الصباح، رأيتها أول مرة بعد أن قضينا سنتنا الأولى في الجامعة وجمعنا قسم واحد، كم كانت جميلة وفاتنة هذه الفتاة زرقاء العينين بيضاء البشرة، رأيتها تمر من أمامي رشيقة القوام مبتسمة الثغر وهنا تلاقت عينانا. لم أكن أعرف أن نظرتها تلك ستجعلني أسيراً لحبها طوال هذه السنوات، كانت نظرتنا الأولى ولم تكن الأخيرة، سرقنا النظرات والبسمات لشهور، ولما كنت لا أجرؤ على محادثة أي فتاة استمررنا على هذا الحال وارتضيناه لسنة و اثنين، كنت أحدث نفسي و أقول بأنه الآن قد وجد قلبي غايته ورسم لي عقلي أحلاماً وردية ظننت أني يوماً قاطفها، وهل يعين على الحياة أكثر من زوجة ينبض القلب بحبها إذا رآها؟، هكذا منيت نفسي أنه بعد عامين أستطيع أخيراً محادثتها، وإخبارها بحبي الطويل لها، وبرغبتي في التقدم لخطبتها. طمأنتني النظرات والبسمات ومر عام و أنا أنعم في جنتي الصغيرة تلك. أفقت بعدها على كابوس مفزع لم أخرج منه حتى الآن. كنّا نتجول أنا وصديقي عاطف خارج الجامعة في نهاية الأسبوع، أحدثه

عن الحب والعشق والأحلام ويحدثني هو عن السفر والأعمال، كلانا يعزف على وتره الخاص، إلا أن لحننا لم يكن نشازاً يوماً. ولمحتها من بعيد تتألق كعادتها، تمشي مرحة خفيفة الروح والجسد وكأنها على وشك الطيران، ور أيت وجهها يبتسم فيجذب القلوب، فدق قلبي وتجرأت للحظة ان ألحق بها وأستوقفها وأمطرها بزخات حبي المكتوم إلا أن يدها الممدودة بجوارها التي تمسك بيد شاب طويل صفعتني فأيقظتني من حلمي الجميل، ازداد قلبي خفقاناً وكدت أن أقع فتوقفت. حينها رآها صديقي فنظر لي نظرة ذات معنى وشدّ على كتفي وقادني إلى طريق آخر. ست سنوات مرت ولا زلت أذكرها، ست سنوات وبداخلي جزء من روحها، وهل نوران شيء يُنسى؟

وزوجتك؟

زوجتي!، مسكينة وعاثرة الحظ يا صديقي.

وسمعت صوت الشاب مجدداً يداعب أصحابه ويقول لهم الآن سأحكي لكم عن رحلتي الأخيرة، وعيون أصحابه حوله ما زالت تلمع. وعاودتني ذكرى صديقي.

لا تنساني إذا ما شغلتلك الدنيا عني.

وكيف أنساك يا ماهر، والله إني سأشتاق لك كثيراً، قل لي، هل ما زلت لا تنوي السفر؟

نعم، مكاني هنا وذكرياتي هنا، وبدونها أنا لاشيء.

عِش حياتك يا صديقي و انساها، كفال حزناً على ما فات!

ليس حزناً وإنما جمع للشمل، ثمة ذكريات معقودة بأرواحنا إن نسيناها نكون قد حكمنا على أنفسنا بالموت.

سأشتاق لي يا صديقي.

ودعته يومها دون رجعة. والآن أجلس وحيداً هنا، أستمع لحكايا الناس ولا أخالطهم، أتناول الشاي والقهوة وأعود لأنام.

وما الذي يحمل الإنسان على التمسك بهذه الحياة البائسة وبزينتها إن لم يكن بها صديق أو حبيب؟

ناولت صبي المقهى الحساب وغادرت تاركاً ورائي مكاناً يفوح بنشوة غريبة، وطاولة مُحملة بذكريات طوتها الأيام ولم ينساها العقل. ورجعت إلى البيت فتناولت العشاء صامتاً وغسلت يدي ودخلت غرفة النوم لأجد زوجتي فاردة جناحيها على السرير تدعوني إليها.

يحيا الأمل

خرج صوته غليظاً خشناً يناسب تماماً جسده المكتنز ووجهه الأسمر وقامته الطويلة إذ بدوت و أنا أقف أمامه وهو متربعاً على كرسيه الكبير الذي يتسع لاثنين من أمثالي أننا متقاربان في الطول. قطع كلامه رجلان قد التفّا حول طاولة دائرية بأرجل حديدية طويلة ورفيعة وقد علا صوتهما "شيش .. بيش" و أيديهم تضرب على الطاولة كحدادين في ورشة.

- يا اخوانا مش سامع الراجل .. وطوا صوتكوا شوية .. وبطلوا رزع .. الطاولة مش هتطير، وبدون كلام منهم أو التفات إليه- كي لا يضعف تركيزهم- وأعينهم مُثبتة على المربع الخشبي فوق الطاولة استجابوا له فهدأوا قليلاً وأدار وجهه وقال: اقعد يا أستاذ أحمد .. يا ألف خطوة عزيزة .. أخيراً رضيت عننا وجيت تقعد معانا شوية.. القهوة نورت.

لم أجلس وأنا أتعجل الوقت بالنظر في ساعتي التي لا تُفارق معصمي، رددت بجفاء، ليس ضيقاً منه و إنما من الدقائق الضائعة: أنا مش جاي أقعد يا معلم عطية، أنا جاي أقولك إن الأغاني اللي شغالة عندك في القهوة صوتها زي الرعد في الأوضة عندي، ممكن لو سمحت توطي صوت الراديو شوية؟

- بس كده .. ولو إن النهارده ليلة العيد .. موسم بقا كل سنة و انت طيب .. بس انت تؤمر يا عبقري الحتة يا فلتة زمانك، ولا يا حماصة وطي

الراديو شوية علشان خاطر الأستاذ يعرف يركز. وانطلق في الداخل "حماصة" ناحية الراديو كالسهم بخطى تُناسب جسده الصغير الخفيف وهو ينظر إليّ بنظرات إعجاب وعلى وجهه الصغير ابتسامة كشفت عن أسنان مرصوصة بيضاء كأسنان قط صغير. طفل لم يتجاوز العشر سنوات، هندامه مهلهل، يُرثى له، وبنيته تنم عن شقاء مُبكر وفقر أذلي لم يحن أوانه بعد، فكرت كم يعاني هذا الطفل من عمله، وتخيلت كيف سيبدو بهيئة أفضل لو أنه ترك العمل واستمتع بعطلة العيد كباقي أطفال المدارس، مَنْ هم في مثل سنه. وانتزعني المعلم عطية من أسفي على محمد الشهير بحماصة بصوته الخشن وهو يسألني عن المشروع.

- إلا طمني يا أستاذ أحمد .. إيه أخبار اختراعك .. قرب يخلص ولا لسة .. عايزين نفرح يا راجل .. وحياتك لأسقي الحارة دي كلها شربات على حسابي .. ده بيبقا فرح لو حد من عيال حتتنا نجح في الإعدادية .. ما بالك بقا لو حد اخترع حاجة .. ده يشرف البلد كلها مش الحتة بس.

أحسست بحلقي يجف، والكلام ينحبس في فمي، وينعقد عنه لساني .. وعاد صوت الرجلان يرتفع من جديد "شيش .. بيش" وتذكرت ذهابي لمكتب براءات الاختراعات وعين الموظفة من خلف نظارتها وهي ترمقني بلا مبالاة وتقول:

- سلِّم بحثك هنا .. وربنا يسهل.
- والنشر؟

مفيش نشر حالياً .. هتستنى دورك لما يجي، وأشارت بسبابتها ناحية دولاب حديدي أخضر صدأ يقبع في زاوية الغرفة وقد تكدست بداخله مئات الأوراق والملفات التي استحال بعضها إلى الأصفر وظل البعض الآخر بداخل غلافه لم تُفض أوراقه بعد، وبدا لي كبيت للعنكبوت أقرب إليه من خزينة أبحاث. ونظرت لها وأنا أتعجب: الورق لونه أصفر .. حضرتك عيزاني استنى دوري اللي ممكن يجي بعد ما أموت!

وأدارت وجهها وكأنها اعتادت مثل هذه الأحاديث: والله ده المتاح عندنا .. ممكن تاخد بحثك وتقدمه في أي مكان تاني.

وغادرتُ المكتب وكأن جبل انطبق على صدري، يبدو أن حلمي قد تحطم فوق هذا الدولاب الحديدي، وبهت خلف تلك النظارات السميكة. وتذكرت صديقي حسين وكيف ستكون ردة فعله بعدما أخبره بم حدث مع الموظفة الكشِرة هذه منذ قليل، حسين الذي أقنعته بصعوبة أن يشترك معي في هذا البحث واتفقنا أخيراً على أن نبدأه سوياً. لم أنسى دهشته حين أخبرته بموضوع البحث، "تركيبة جديدة تعالج السكر، تقضي عليه بعد جرعتين بس"، واحتفظت ببريق عينيه، وبمظهر حاجبه المرفوع الذي أراه كلما فكَّر في موضوع هام، وبِرَدِّه المقتصب الذي أتاني بعد دقيقة صمت بدت وكأنها الدهر "يلا نبدأ حالاً" كوقود يحزفني كلمَّا تكاسلت عن العمل في يوم من الأيام.

- واهه يا عم الواد حماصة قفل الراديو خالص علشانك .. يلا شد حيلك كده.

أيقنت أنه من العبث أن أخبر المعلم بم دار بخلدي فآثرت الصمت، وضعني هو في مكانة عالية ورهن فرحته هو والحارة بنجاحي، فلا يجوز لي أن أنسف أملهم وأضيع فرحتهم. وكالعادة ارتبط نجاحي ببهجة أحدهم، حتى أني أتذكر و أنا في الثانوية العامة أن سبب اجتهادي الغير عادي في السنة الأخيرة ودخولي كلية الصيدلة كان من أجلهم هم، كي لا يخيب رجاءهم. ربما كان الضغط الذي وضعوه على عاتقي في أمور كثيرة هو سبب نجاحي فيها، ولكنني وددت لو أخبرتهم يوماً أن الأمر يخصني أنا فقط ولا شأن لكم به .. إنه أنا وفقط!

و أنقذني من الرد هرولة سيدة في الثلاثين من عمرها وقفت بجانبي أمام المعلم عطية، فبدونا في تلك اللحظة كتلميذين ينتظران العقاب من مُعلِم خشن، واستأذنته قائلة: أنا خلاص يا معلم عطية لقيت شغل الحمد لله .. حماص.. وسكتت .. محمد مش هيشتغل تاني هنا .. هيستنى إجازته لما تخلص ويرجع المدرسة زي باقي العيال .. كتر خيرك يا معلم على اليومين اللي فاتوا دول. ودون انتظار جواب دخلت القهوة وأخذت ابنها من ذراعه فبدت في عيني وهي تسحبه كأنما تنقذه من بحرٍ قد علت أمواجه ووشك فيه على الغرق، و انطلقت خفيفة كإبنها إلى آخر الشارع. فرِحتُ لها ولإبنها من قلبي، وأزاح عني مظهرهما بعض همومي.

قررت الجلوس قليلاً، فدقائق ضائعة في نظري ربما لا تكون كذلك في نظر شخص آخر، وكثير من الصبر لا بأس به، فجلست.

- مين حماصة ده يا معلم أنا أول مرة أشوفه هنا؟

- عيل غلبان يتيم بيجي يشتغل هنا من وقت للتاني.
- وأمه؟
- مالها؟
- هي اللي بتجيبه هنا؟
- سعات هي اللي بتجيبه، وسعات أنا اللي بطلبه لما يكون في موسم داخل زي النهارده كده.
- مش حرام طفل في السن ده تشغله معاك في القهوة؟
- حرام! بدل ما تقولي كترخيرك إنك بتعلمه شغلانة ياكل منها عيش.
- والمدرسة؟
- المدارس مبتأكلش عيش يا أستاذ أحمد، شوف عندك الأستاذ عنتر مدرس الإبتدائية اللي على أول الشارع حالته عاملة إزاي .. تصعب على الكافر.
- بس شخصية محترمة والكل بيعمله حساب في الحارة، وبيلجأوا له وقت المشاكل، حتى أنت يا معلم بتقول عليه دايماً إنه مثقف ودماغه توزن بلد.
- مقلتش حاجة، بس بيكسب إيه يعني من الثقافة دي، هما الكام جنيه ماهيته آخر الشهر.
- بيكسب احترام وسمعة طيبة.
- مبيأكلوش عيش.
- أنت بتتفرج على التلفزيون كتير يا معلم؟

- لأ، وهو أنا فاضي، اشمعنى السؤال ده؟
- مجربتش تفتح مرة أي قناة وثائقية علمية وتشوف الناس بره بتعمل إيه وبتشتغل إزاي؟
- تاني هتقولي علمية وثقافية؟
- الناس بره زي النحل، مبيقعدوش على قهاوي كل ليلة زينا.
- انت شكلك جاي تقرعلى الزباين اللي عندي؟
- كل يوم اكتشافات مذهلة، قوانين جديدة بتحكم عالمنا، رحلات لكواكب تانية، علاجات جديدة لأمراض كان مستحيل علاجها، جو ايزنوبل مبتعرفش غيرهم.
- طيب ما احنا خدنا نوبل قبل كده.
- احنا مين يا معلم؟
- أحمد زويل، ونجيب محفوظ والسادات، متعرفهمش ولا إيه يا أستاذ أحمد يا مخترع؟
- تقصد هم خدوا جائزة نوبل، مش احنا، وبعدين هنفضل عايشين على الذكريات لحد وقتيه وناسيين إن فيه حاضر عايز يتعاش ومستقبل مستنينا.
- هو فيه أجمل من الماضي الجميل والذكريات وصوت أم كلثوم وهي بتدندن.
- العالم كل يوم في تقدم ولو فضلنا زي ما احنا هنندفن ومحدش هيشوفنا، هنبقا أقزام في نظرهم.

- ما كلنا هنموت يا أستاذ، أنت هتكفر ولا إيه؟
- والحياة؟
- مالها بس ما هي زي الفل أهه.

وسمعنا قهقة أحد الرجلين من خلف الطاولة يبدو أنه انتصر أخيراً!

- شفت الناس مبسوطة أهه بلاش تعقيد بقا.
- في الوقت اللي صاحبنا ده مبسوط فيه ملايين بيعانوا نتيجة جهلنا.
- يووه .. تاني، واحنا مالنا بس!
- انت مؤمن بالله يا معلم عطية؟
- أيوة يا أستاذ، أنت هتكفرنا ولا إيه؟
- طيب إحنا مخلوقين ليه؟
- سهلة دي .. الشيخ كل جمعة بيقولها .. علشان نعمر الأرض.
- والأرض دي هنعمرها إزاي؟
- هو بيقول بالسعي وتربية الأبناء تربية سليمة و أنه يكون لك أثر على الأرض وكلام كبير كده مبفهمش منه حاجة.
- بدون عِلم الأرض هتبقا خراب وليست عمار.
- وهو تربية العيال عايزة علم برده يا أستاذ، أنت بس علشان شباب لسة صغير متعرفش إزاي تربي عيل.
- الفهلوة والارتجال في كل مو اقفنا اليومية كارثة كبيرة.

- كارثة .. استريا رب.
- من لا يعلم يدعي العلم، الجهل أصبح منهجاً، العالِم من جهلهم يسموه جاهلاً، والمُفكِر من جهلهم يسموه متحذلقاً، من يتمرد على عاداتهم ويرفض موروثاتهم يدعونه مُرتداً، سُبات عميق هم فيه غارقون وله محبون وبسببه هالكون.
- بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ، مالك يا عبقري بتكلم نفسك ليه؟
- العِلم شخص نرجسي لا يعترف إلا بنفسه وفقط.
- العِلم .. العِلم، أنت محموم بيه ولا إيه يا أستاذ؟
- نحن السابقون يا معلم و أنتم اللاحقون إن شاء الله.
- لا مش عايزه وميلزمنيش.
- هيفرض نفسه على الكل، مش بقولك نرجسي ولا يعترف إلا بنفسه.
- هنرفضه؟
- يبقا حكمت علينا بالحياة كأموات.
- للدرجة دي؟
- أكتر وأشد، العلم قوة والجهل ذل، العلم طريقه صعب وشائك أكيد زي التينة بالظبط علشان توصل للبها الحلو لازم تتحمل شوكها المؤلم، عمرك شفت عاقل بيرمي التينة علشان شوكها يا معلم؟

وسكت ثانية وقال: ده كله علشان الواد حماصة بيشتغل هنا يا رجل؟

وضحكت رغماً عني وضحك هو "أيوة كده يا رجل بحبحها شوية"، وبدأ الناس بالتو افد على المقهى بأعداد غزيرة فنظرت له وأشرت بيدي عليهم معبراً عن كثرتهم، وضحكنا من جديد وهبت نسمة هواء تحمل عبق الربيع وقت غروب الشمس وكأنها آتية من بستان بعيد فعبثت بشعري الطويل وحركته وبعثرت خواطري الحزينة وحملت معها حُلماً خاصاً، لعله الأمل بنشر بحثي وتطبيقه في وطني والعالم، وتكليل جهودنا أنا وصديقي بالنجاح.

و ابتسمت للمعلم عطية و أنا أردد: مع السلامة يا معلم عطية.

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

- نشر كل إنتاج إبداعي ذي جودة عالية و أفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook.com/arabiclibrary2017